فاطمة يوسف العلي

تاء مربوطة



تاءٌ مربوطة

قصص قصيرة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

فاطمة يوسف العلي

تاء مربوطة

قصص قصيرة



الكتاب : تـــــاء مربـوطـة
قصص قصيرة

الكاتب : فاطمة يوسف العلي

الناشر : مركز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٦٢٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.977-291-274-O

الغلاف :
لوحة الغلاف للفنان الكبير: صلاح طاهر
تصميم الغلاف - جرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيـــذ : ســـيد حـــرزاوى
تصحيـــح : زكريـــا منتصر
كمـال عبد الرســول

عنوان الكاتبة

ص . ب ٨٤٩٩ السالمية

الرمز البريدي : ٢٢٠٥٥ الكويت

تليفون : ٩٦١٢٦٣٣-٩٦٥..

خالتي موزة

في بلادنا «الخليج» دون غيرها يمكن أن يطلق اسم «موزة» على البنات، كانت إحدى خالاتي تسمى «موزة»، لم أفكر في معناه، إلا عندما قالت لي أمي ذات مرة:

خذي موزة تغذيك.

تساءلت:

هل خالتي للأكل أيضاً؟

مع الزمن، والعمر، عرفت أن «الموزة» من أطيب الفاكهة.. رائحة.. ورشاقة.. عندما عرفت هذا لم تكن خالتي رشيقة كالموزة.. ولكنها كانت تضع المسك والورد في طيات ثيابها.. مع الزمن نسيت الموضوع كله.. وأصبحت أتعامل مع فاكهة الموز كما أتعامل مع التفاح والبرتقال.. بعيداً تماماً عن الشعور بخالتي موزة التي كبرت الآن وكثر عيالها، وبعضهم أخذ وظائف محترمة..

مع الزمن.. انتقلت إلى فيلا خاصة، حين أصبحت لي أسرتي الخاصة.. في الحديقة الصغيرة زرع البستاني شجرة موز.. عرفتها من أوراقها العريضة، تذكرت خالتي.. وتساءلت:

هل أولاد خالتي يزرعون أشجار الموز أمام الشاليه الذي يقضون فيه إجازاتهم؟ وهل يبتسمون حين ينطقون هذه الكلمة، أم تعوّدوها، كما يتعوّد كل إنسان اسمه؟!

حين اقترب البستاني من شجرة الموز، وقد أصبحت عالية تتجاوز في ارتفاعها قامته، كانت في يده فأس صغيرة.. رفع بها يده يريد أن يضرب الشجرة في جذرها / قلبها ليقتلعها!!

صحت به:

- ماذا تفعل؟

فوجئ الرجل بنبرة الفزع، اعتدل. ظهر أثر ذنب لا يعرفه في عينيه، قال:

- سأقتلع الموزة..

قلت:

- كيف تقتلعها؟ من سمح لك؟.

- حسب الأصول.

- الأصول!!؟ أي أصول؟!

- أصول الزراعة.

- أصول الزراعة؟ من علمك هذا؟

قال وقد نفد صبره لجهلي بقواعد البستنة:

- كل الدنيا تعرف أن شجرة الموز تطرح ثمرها مرة واحدة..

- مرة واحدة؟!

- فقط.. سنة واحدة، ثم..

- ثم..

- لابد من اقتلاعها لتعطي الفرصة لعيالها أن تكبر وتثمر..

قلت بتهكم لم يلاحظه:

- يا سلام..!!

قال بثقة :

– نعم، إذا لم نقتلع الأم لن يكبر أولادها . .

شردت . . سرحت . . فكرت في خالتي موزة . . في أولادها . . هل من المحتم أن تموت خالتي لكي يكبر أولادها ؟ فزعت من تخيل هذا المنظر، رفضته، قررت المقاومة . . إلاّ خالتي موزة !

قلت :

– اسمع . .

– نعم . .

– اترك الموزة الأم، واترك عيالها .

– لا يجوز . .

قلت :

– اتركهم.

– نتركهم، ولكن على مسئوليتك . لن نجد فيهم أي ثمار في الموسم وأنا أعلمك بهذا مسبقًا .

قلت له :

– ولو، لا أريد الثمر . . أريد خالتي . . وعيالها . .

نظر إليّ بدهشة، لم يفهم، لم أكن أعرف ماذا قلت إلاّ عندما قلب عينيه فيّ . وقال :

– خالتك ؟ ما شأن خالتك بهذه الحديقة ؟ أنا المسئول وأنت تدفعين لي في مقابل هذا العمل . .

قلت :

– ما عليك . . سأدفع لك ما اتفقنا عليه، ولكن لا تلمس

خـ. الموزة، ولا عيالها..

- كيفك، ولكن مرة ثانية أقول..

أكملت له:

- لن نجد لهذه الشجيرات الصغار ثمراً في الموسم القادم..

قال مؤمنًا:

- تمام..

ترك خالتي موزة وعيالها، يرسلون الخضرة والظل أمام الفيلا، في الموسم.. أثمرت خالتي ومن حولها سائر أفراد العائلة!! ●

تاء .. مربوطة

تترامى مساحات الجسد فتبدو من بعيد كأنها حوت يونس، يتقاطر الطابور ويختفي في داخلها وكأننا نعود إلى سكنى الكهف. على العتبة الفاصلة تداخلت أصوات من الهدير والزئير والحشرجة والتشنج، وحتى النباح والفحيح.. أدركني شيء من الوجل والقلق. قلت:

- ماذا تخفي هذه الأصوات العجيبة، وهل للحديد مشاعر وعواطف يضمرها؟ وإذا كان .. متى سيكشف عن أسراره ؟

قدمت البطاقة، امتدت كف ناعمة مصبوغة الأظافر بعناية، تناولتها، نظرت فيها، تقدمتني إلى المقعد. أومأت لها شاكرة. قالت بعربية فصيحة:

- نحن في خدمتك يا سيدتي.

انحط جسمي في المقعد، يشده التعب والإجهاد كأنني كيس رمل، السفر قطعة من العذاب حتى في عصر الصواريخ عابرة الكواكب. بحثت أصابعي عن حزام المقعد. قبضت يد خشنة على يدي. تطلعت بفزع وهلع . لم يكن منظره يوحي بالفظاظة التي أعلنتها حركة اليد. انكمش جسدي، ولكني قلت متحدية:

- هناك شيء؟ هذه بطاقة الحجز!! انظر.. الرقم..

- أعرف. الرقم صحيح، والمقعد خطأ!!

- لم أفهم . .

- تتفضلين بالقيام معي . . وهناك . . تفهمين . .

- هناك ؟ ! أي هناك ؟ لن أغادر هذا الكرسي . .

ارتفعت نبرته ، جحظت نظرته ، ظهر الزبد على جانبي فمه ، ازداد ضغطًا على أطراف أصابعي :

- ليس عندي وقت أضيعه معك . . الطائرة مقسومة . . الجزء الأمامي للرجال . عندنا الاختلاط ممنوع . . أظن الأمر واضح الآن .

قلت متشبثة بجانب المقعد :

- ليس كما تظن ، أنا حجزت على رسم تخطيطي للطائرة ، وهذا الكرسي يخصني أنا بالتحديد .

ارتفع صوته :

- لا يخصك ولا (يعصَك) ، والقانون لا يحمي المغفلين . .

زجرته غير هيابة :

- التزم الأدب . . كيف تقول إنني مغفلة ؟ !

لا تزال يده تضغط أصابعي حتى الوجع :

- لا تحاولي إرهابي . . السيدة التي تحجز مكانًا بين الرجال إما أنها مغفلة . . أو شيء آخر لو نطقت به ينالني عقاب جنحة سب .

أدهشني تصميمه وجرأته وتحديه للجو الناعم الهادئ الذي تعودته في رحلاتي . عبارته الأخيرة أشعلت نار الغضب في قلبي ، جذبت يدي بقوة ، فكرت أصفعه . عرف ما أفكر فيه . تراجع نصف خطوة ، نادى تلك الحسناء التي أوصلتني من قبل .

أمرها وزميلة أخرى لها بإخراجي من المقعد، متوعداً أنني إذا قاومت سيطردني من الرحلة.

قرأت الجدية في الوجوه الثلاثة، لم أجد مفراً، قمت، مضيت في اتجاه الذيل. لم تكن القسمة عادلة. كان المقعد البديل ضيقًا، خشنًا، كئيبًا، لا يسمح بأي حركة. نظرت إلي الرجل والفتاتين من خلفي.. في صمت أشار إلى المقعد، وقال كلمة واحدة:

- هنا..

وقالت الفتاتان:

- القسمة والنصيب.

صرخت:

- ولكني دفعت دنانير بقدر ما دفع أي رجل من هؤلاء المتصدرين في مقدمة الطائرة.

قال الشاب:

- هذه حقوق مكتسبة للشوارب وللحى..

صرخت:

- مكتسبة؟ ودنانيري؟

قال الشاب:

- دنانيرك المزعومة حق الرجل.

عجزت عن التفاهم معه. تعلق بصيص الأمل بالفتاتين.. اتجهت إليهما:

- هل توافقان على هذا الكلام؟

قالت التي لم تتكلم من قبل :

- وهل نملك الاعتراض؟

صرخت :

- لماذا لا تملكان الاعتراض؟ هو مضيف، وأنت مضيفة!! لك مثل ما له من حقوق..

اكتفى هو بنظرة هازئة. قال :

- أرأيت !؟ مضيف.. مضيفة.. هناك فرق.. تلك التاء المربوطة..

قالت الأخرى :

- هناك أمر آخر لا تريد الزميلة أن تعترف به.. لأنها القديمة!!!

لم أفهم .. عادت توضح :

- ببساطة.. إنه زوجنا.. أنا الجديدة.. وزميلتي القديمة.. فكيف نعترض على أفكاره..

قالت القديمة :

- أبداً.. التاء المربوطة.. أصل الكارثة.. الغوا هذه التاء اللعينة، تستقيم العدالة..

قالت الجديدة :

- لا تصدقيها.. التاء المربوطة هي التي جعلته يطاردني حتى تزوجني.. وانصرف عنها.. لابد من الاحتفاظ بالتاء المربوطة ..

نظرت كل من الفتاتين للأخرى في تحفز وتوجس.. بدا لي أن قتالاً سيحدث وشيكًا.. انكمشت في الكرسي خائفة.. أما هو

فكان يستدير هازئاً ، وهو يقول :

- حيلكم بينكم . . وأنا السلطان ! !

صحوت من إغفاءتي على صوت المضيف ، يقول :

- الآن . . نتأهب للهبوط بمطار الكويت الدولي . . الحمد لله على السلامة ، ومن أجل سلامتكم نرجو التزام المقاعد حتى تتوقف الطائرة . . ●

عندما كان الرجال
«حريمًا» للسيدة !!

من مسافة شاسعة جداً.. سمعت صوتها كأنها على بعد خطوات..

تلفت حولي.. لم أجد من يحادثني.. رحت أحدق.. كانت تجلس أمام الكهف. إنها زعيمة.. مساحات شاسعة بيضاء تحدد الصدر. تعلوه كرتان من القشدة. وثمرة التوت مغروسة في قمة الكرة.. تلتمع بالعسل.

إنني أرى حركة فمها رغم البعد الشاسع. زاد عجبي.. إذ لو كان معي ميكروسكوب بهذه الدرجة من الحساسية. فكيف صارت عيني قادرة على اكتشاف المنظر من هذه المسافة الطويلة؟!

عادت تقول:

- لا تخافي المطر.. أقبلي.. عرفت أنها تقصدني، طويت المظلة.. قلت لها وعندي أمل أن تسمعني كما أسمعها:

- أنا خائفة!!

كبحت الكلمة الأخيرة. كنت سأقول : أنا خائفة منك لابد إنها تملك حساسية مدهشة .عرفت ما كنت سأقول . نهضت . ظهرت ساقاها رفيعتين، ترتفعان حتى تصلا إلى موضع الاستدارة فيحدث اندماج لا بأس به، قالت:

- لا تخافي مني .. أنا لُو..

كنت اقتربت . قلت لها :

- أنا لست خائفة . . أنت لُو وأنا لُولُوه . .

ابتسمت عن أسنان بارقة . تلتمع ببريق صاف . . نظرت إلى من حولها . قالت :

- أنت منا يا لولوه . .

- أتشرف . .

هكذا قلت .

تكدر وجهها الطازج مثل الفاكهة الصابحة . لم أعرف السبب . . استدارت شبه معترضة . . كان ظهرهاالعاري جميلاً . . ينسدل من كتفين مستديرين ليتجمع مع الشعر المنهمر في عناقيد تصل إلى مستوى الخصر . ثم ينبسط الردفان في شموخ يرتفع قليلاً عند اجتماعهما . .

ملأت عيني من جمالها الوحشي وعريها الجميل . . سألت نفسي :

- هل أنا حقًا أنثى مثل ساكنة الكهف ؟ ! هل لو تجردت من ثيابي . . مجرد افتراض يمكن أن أمارسه في لحظة جنون أمام المرآة . . هل سأشاهد هذه «المظاهرة» الاحتفالية للجمال ؟ ! .

لو كان . .

لماذا اخترعوا الأحزمة ، والباروكات ، والأحذية ذات الكعب العالي ، والكورسيهات . . والسوتيانات . . و . . و . . وكريستيان ديور من أوله إلى آخره . . و«الأندروير» بكل مشتملاته ؟ وعمليات التجميل ! !

إنها «ورشة» لإصلاح ما أفسد الدهر من جمال حواء!!

قلت في نفسي:

- ماذا أغضب السيدة لو؟ أو لعلها الآنسة لو؟!

قلت في نفسي:

- آنسة! لا.. حرام.. هذا الجمال لو فرقته على العالم كله لنال كل رجل «قضمة» تدير رأسه مائة سنة..

حرام أن تكون آنسة!!

كيف قرأت «لو» المعاني التي دارت في ضميري؟! قالت:

- لا ترتبكي.. هؤلاء أزواجي.

شهقت فزعًا. مع هذا.. نظرت.. كانوا نحو عشرة من ذوي الشوارب.. أجسادهم برونزية وقاماتهم مدكوكة كأنهم سيدخلون مسابقة كمال الأجسام.

- أزواجك؟! هكذا قلت.

قالت كلمة واحدة لم أفهمها. لكن الرجال العشرة قفزوا خاضعين، ونطق كل منهم اسمه الذي لم أتبينه أبدًا.. فقد كنت منزعجة من منظر عريهم.. ويظهر أن بعضهم كان منفعلًا، أو يفكر في «لو»، أو يتأهب لأداء وظيفته الزوجية.. كان المنظر عجيبًا!!

قالت:

- هل أنتِ خجلى؟ إنهم مجرد أزواجي.. بلاوي لا تصلح إلا للبيت..

- كانوا يقفون أذلاء، كأنهم في طابور السجن.. تغير المنظر

بعض الشيء ، بعد أن سمعوا سخرية «لو» ذهبت الرغبة فحدث هبوط عام ، بل زاد حد الانكماش عند بعضهم.

قالت «لو» :

– انظري كم هم مقرفون.. لا شغل لهم غير الأكل والشرب وملاعبة أطفالي.. أقسم بالإلهة ديميتر إلهة الخصب المقدس.. لولا شفقتي عليهم لأرجعتهم إلى أمهاتهم..

كنت الآن قريبة منها جداً.. آه من عينيها البنيتين الصافيتين مثل العسل..

قلت في نفسي :

– كيف ابتسمت هذه العيون الصريحة الصافية لعشرةمن الرجال واحداً بعد الآخر ؟!

كان للرقم رنين غريب في نفسي.. عشرة من الرجال.. لامرأة واحدة ؟.

فاجأتني :

– لولوة.. كم رجل عندك ؟.

أجبت بسرعة أنفي التهمة :

– طبعًا واحد.

قالت بدهشة مستنكرة :

– واحد ؟! واحد ؟! هذه فضيحة في أمثالنا.. أكثري من الأبقار والرجال قدر الاستطاعة.. فالذي لا يصلح للحلب. يصلح للحرث!!

نظر الرجال العشرة في الأرض خجلين من أنفسهم ،

وقهقهت «لو» واستدارت من جديد ، فرأيت جمالها الفارع من زاوية الجنب.. ثم مواجهة ، حيث تلتقي خطوط المنحنى وتتفرع.

ضربت بيديها على فخذيها في بياض الحليب. وقالت :

– أقسم بديميتر المقدسة أنت على حق يا لولوة يا عيوني.. ماذا أخذنا منهم؟ يكفي واحد فعلاً.

(عادت تكرر) :

– ماذا أخذنا منهم.

هنا نظرت إليهم، كان العشرة في حالة انسحاب مطلق.. ضحكت «لو» ساخرة. وقالت بشماتة :

– حتى.. ولا هذا.. انظري.. شيء مخجل.. رجال آخر زمن!!

لم أنظر طبعًا، إنه شيء مرعب ومقزز. السؤال لا يزال يلح عليّ، قلت لها :

– كيف تزوجت عشرة؟

قالت :

– كما تتزوج كل النساء.. هذا اصطدته من الغابة، وهذا.. قايضت عليه بقرة وثوراً، وذاك دفعت فيه جرة من الجعة.. لأمه السكيرة..

قلت :

– لم أقصد.. هل دينكم يسمح لك بتعدد الأزواج؟

قالت :

– لماذا لا يسمح؟! ديميتر نفسها إلهة الخصوبة متزوجة من جميع الآلهة.. وهم لا يكفونها.. آخر أخبارها أنها تبحث عن عشيق!

قلت مندهشة:

– ومع هذا تؤدين لها العبادة؟

قالت «لو»:

– هي حرة!! كيف تكون إلهة وتضايق نفسها؟!

قلت مندهشة:

– هذه ليست قضية مضايقة.. هي قضية نظام..

قالت:

– أنا مع النظام.. أنا المسئولة.. أختار من بين هؤلاء من أريد أن يكون الأب للولد القادم.. وأسلمه ابنه ليربيه كما أريد.. وأحضر له الطعام إلى باب الكهف.. هل يحلم بأحسن من هذا؟

قالت عبارتها بثقة، فوافقت حتى لا أصدمها.. وهززت رأسي.. أمسكت فجأة بيد واحد من رجالها. ودفعته نحوي. وقالت:

– هذا اسمه «تشا». إذا كان يعجبك خذيه لك.

كنت أعرف أن هذا غير ممكن، فأنا متزوجة. ولكني نظرت إليه.. التقت عينانا.. كان في نظرته خضوع. أراد أن يظهر دليل الموافقة.. على طريقتهم. أشارت «لو».. إليه، وقالت:

– انظري.. لا يزال صالحًا..

يمكن أن تستخلصي منه عدة أطفال.. أصحاء. وهو المهم!!

حولت وجهي ناحية أخرى. قلت لـ «لو» على سبيل الشكر:

- لم أفكر في حرمانك من أزواجك.. أنا فقط رأيت أن أعرف على الطبيعة كيف كانت تعيش المرأة من عشرين ألف سنة..

قالت لو:

- هل أعجبتك حياتنا؟!

فكرت في الجواب.. ماذا أقول؟

الجواب على أي حال.. غير مقبول.. لزمت الصمت!!

عادت «لو» تقول:

- أيامنا أحسن.. أم أيامكم؟!

مرة أخرى.. لم أجد جوابًا.. فتحت المظلة.. وانطلقت من جديد أسير تحت المطر!!

وجاءني صوت «لو» المنفعل. وهي تسأل أزواجها في ضيق:

- لم تقبل أن تخلصني ولو من واحد منكم.. أمرنا لديميتر المقدسة.. صاحب الدور يدخل الكهف.. يجهز نفسه.. أف.. لا راحة في الدنيا!! ●

ما فيها شيء

«وردة.. والله العظيم وردة..»

رشت العطر على الصدر وامتداد الذراعين، أضافت وهي تدور حول نفسها أمام المرآة:

«لا ينقصهاالأريج».

ابتسمت وقد اعترض ذاكرتها قول الشاعر:

«أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا!!»

مع أنها مسرورة بالوصف لأنه يناسبها، تضايقت أن ذيول المذاكرة تطاردها حتى وهي تتزين للخروج!! المشكلة أنها لم تعرف مع أنها حفظت هذه الأبيات الأسبوع الماضي، هل قالها البحتري، أو أبو تمام؟!.

فكرت أن تترك المرآة وتعود إلى صف الكتب لتوقف سيل القلق.. لكنها تحدث نفسها:

- بالطقاق، ما الذي سيجري في العالم لو كان قائلها أبو العلاء المعري؟ أو الزمخشري حتى!!

هل كانت تكلم نفسها بصوت مسموع؟

لم تعرف تمامًا، لكن صوت أمها اقتحم عليها تأملها لنهديها وخصرها، وإعجابها الزائد بأماكن الاستدارة وقَصَّة البلوزة عندهما، صوت الأم مكررًا:

- مريم.. يا بنية.. ما تسمعيني؟

فكّرت أن تخفي بسرعة قلم أحمر الشفاه، ولكن هل ستخفي الآثار من على الشفتين؟! أن تعيد زجاجة العطر إلى درجها، ولكن الرائحة تنبعث من جسدها...

- «أمري لله» نعم... يايمّه سامعة والله...

كانت وصلت إلى باب الغرفة..

- يا بنية تأخرت.. تقولين الزيارة في مستشفي.. هذا وقتها..

وقفت متجهة نحو الأم «انتباه» لتداري ارتباكها، جهزت بسرعة فائقة عبارات الدفاع عن نفسها، جرى السيناريو كما توقعته تماماً.. أنها.. أمها.. حافظتها جيداً:

- ما هذا يا مريم؟ لا يا بنيتي.. أنت صغيرة على العطور..

- كولونيا يا يمّه، مادة مطهرة.. وتخفي رائحة العرق.. بس.

ردت الأم متشككة:

- بس؟!

- بس!!

- وهذه البلوزة الشفافة.. تناسب زيارة مستشفي؟!

أقبلت على أمها تعانقها، كنوع من أسلحة المقاومة، ترددت حتى لا تكتشف أحمر الشفاه، راوغت بالاستدارة جانبًا، قالت وهي تفتح حقيبة يدها الصغيرة وتنظر للا شيء في جوفها الخاوي إلا من المناديل الورقية، وقطعة حلوى منسية:

- المهم.. الألوان.. مناسبة؟!

- يا بنيتي.. صديقتك مريضة.. في مستشفي.. هذا اللبس

لا يصلح .. هذا يناسب ...

قاطعتها بغير حدة:

- عارفة يا يمّه .. عارفة .. يناسب زيارة أقاربنا .. بيت عمنا .. لكن متى؟ الثانوية وامتحاناتها حولتنا إلى محنطين في صناديق حجرية اسمها البيوت ..

- لكن يا بنتي .. زيارة مريضة .. تقولين زميلاتك كلهن ..

مرة أخرى .. قاطعت أمها:

- زميلاتي يلبسن أكثر من هذا، وأحسن مني، ليس عندنا فرصة أخرى للبس والخروج ...

- لكن يا بنيتي ..

كانت «المقاطعة» هذه المرة بقبلة على خد الأم:

- خلاص يا يمّه .. الموعد لا يحتمل .. باي .. باي ..

كالفراشة طارت، حرصت على ركوب السيارة حتى لا يتبدد الأريج، ضغطت قدمها على البنزين ليضاعف السائق من سرعته، استرخت في مقعدها عندما رأته من بعيد يقف أمام مدخل الحديقة، كم تتمنى أن تردد اسمه بدون ألقاب، كم تتمنى أن ينجح تدبيرها ويسيران في شارع لا يعرفهما فيه أحد .. سويًا؟ فكرت قليلاً هل سيحتفظ بيدها بعد أن يصافحها؟ شعرت بالقلق: إنه قد لا يمد يده إليها .. فماذا تفعل؟.

انطلقت من باب السيارة أمامه تمامًا، رضيت عن الدنيا جداً حين رفعت حركة نزولها ذيل التنورة من مستوى القدم إلى ما

يقارب الركبة، الهواء شارك في أن يكون الأمر طبيعيًا، لكنها أحبت أن تشعره بأنها غير منزعجة من عينيه فلم تعدل ثيابها أو تتمهل..

وهو ينظر في ساعته:

- في موعدك تمامًا..

- صباح الخير (بإرادة صارمة توقفت عن نطق اللقب).

- ليت زميلاتك مثلك.. (تلفت حوله) أنت طراز فريد يا مريم.

انتشى قلبها.. كلام له معناه، لا أحد عنده مثلها..

- صحيح؟!

تتطلع إلى وجهه الحليق بشغف، لماذا لا يمد يده للسلام عليها؟ في الظرف المعتاد، لا يوجد دافع للمصافحة، اليوم.. المناسب، والمكان المناسب يختلف، هل الشعور مختلف؟ تطلعت إلى كفه اليسرى.. خاتم الزواج في مكانه، لو أنه وضعه في جيبه.. كانت ثورة تفتح الطريق.

- هل وصفت لهن المكان بدقة؟

لم ترد، ظن أنها هزت رأسها، تحركت عيناه في اتجاهات مداخل الشوارع المطلة على الدوار، تحركت معه كأنها تشاركه التوقع، كانت تفكر في الخطوة التالية. وضع يده ذات الخاتم في جيبه. نظر إليها:

- ما دمت وصفت لهن المكان، أخشى أن يكون الاختلاف في الموعد، هل أخبرتهن أن التجمع في العاشرة؟

لم ترد، كانت على ثقة من أنها تؤدي كل ما يطلب منها بطريقة سليمة. اعتقد أنها هزت رأسها مرة أخرى بالموافقة، كانت تعض على شفتها السفلى وتدور قليلاً على كعب، كان يسأل نفسه:

- زين، لماذا لم يحضر أحد؟!

أحست أنه من الضروري أن يحدث شيء يحسم الموقف، فكرت:

- هل أقول؟ هل أتركه يستنتج؟ الحل الثاني مناسب الآن.

ولكنه حين يعرف الحقيقة غداً سيغضب، ولا تدري.. ربما ينقلب عليها ويسخفها أمام زميلاتها.. إذا اعترفت له.. تكون معركة فاصلة.. النصر.. أو الهزيمة!! لم تعرف هل الأحسن أن تكسر نظرتها وتحني رأسها إلى الأرض؟ هل تظهر تعلقها به وتنظر إليه ليعرف أنها فعلت هذا من أجله؟

فاجأها:

- هل هناك شيء؟

أخذت نفساً عميقاً، تطلعت إليه لحظة، انحرفت بعينيها فانطلقت نظرتها مع المجهول:

- الحقيقة أنني نسيت إخبار...

مندهشاً:

- نسيت

- كل الناس تنسي!!

- فعلاً، لكن كان من الواجب إخباري وإلغاء الزيارة.

هل تقول إنها التى دبرت هذا النسيان المقصود؟ المناورة أكثر أمانًا :

- كنت قد اتصلت بمنى في المستشفى وأخبرتها بالموعد.. الإلغاء يحزنها ويؤثر على نفسيتها..

- وماذا نفعل الآن؟

- نذهب!!

- وحدنا؟ أنا.. وأنت؟

- أنت أستاذها، وأنا زميلتها.. ما فيها شيء..!!

انطلقت كلماتها مثل أشعة الليزر، إلى الهدف، لا يوقفها حاجز . أفرغت شحنة الانفعال.. تعلقت عيناها بشفتيه.. بماذا يحكم هذا القاضي المتصلب؟

أخرج يده من جيبه، لمع خاتم الزواج تحت أشعة الشمس، تحيرت نظراته على مداخل الشوارع، مع علمه بأن أحداً لن يأتي.. تجمعت النظرات على وجه مريم.. تابعتها بدقة من تحت جفون منكسرة.. تسرح من الشعر إلى الثغر.. من النحر إلى الصدر.. رأت أن تساعده على قرار الموافقة.

- نذهب سويًا.. أنت أحضرت لها «أوتوجراف».. هاهو

- وأنا اشتريت لها هذا الإطار لتضع فيه صورتها..

- وزميلاتك؟

- نعتذر لهن غداً (تمنت أن تقول: لا تخبرهن بهذه الزيارة) ونكررها بعد أيام!!

لم يفكر طويلاً ، بحثت أصابعه عن مفاتيح سيارته، تحرك

نصف خطوة رجع فيها، مد يده إلى مريم.. تهلل وجهها واستعد لأن يكون مشرقًا بالسير إلى المستشفى القريب إلى جانبه، تجرأت بالنظر مباشرة في عينيه، رأت بدقة لونهما البني الغامق من أقرب مسافة ممكنة.. رأت أكثر ما فيهما من سعادة تريد أن تنطلق.. فرحت به جداً، تستطيع الآن.. ربما تناديه باسمه المجرد، كما تفعل حين تكون وحيدة، مدت يدها لتسحبه في الاتجاه، قبضت على كفه.. خاتم الزواج نتوء مغلق مثل شوك السمك حين يعترض الحلق.. انتصرت على قلقها المؤقت، وغيرت وضع يدها حتى لا يشعر - هو الآخر بالخاتم.. قالت بهمس النجوى:

- هيا.. الموعد الآن مناسب تمامًا.. و.. ومنى تنتظر.

فجأة، بدون حدة، سحب يده، أعادها إلى جيبه، أخرج الأوتوجراف، قال:

- اعتذري لمنى، قدمي لها هديتي.. سنجدد الموعد.. ونذهب جميعًا..

قالت آسفة، تحاول إنقاذ الزورق من الغرق المؤكد:

هل يرضيك أن أذهب وحدي؟

سقطت سلسلة المفاتيح، انحنى ليلتقطها.. عيناه الآن مستقرتان على ظهر سيارته الواقفة على الجانب الآخر من الدوار..

- المناسب.. أن تذهبي وحدك.. سلّمي..

حين احتوت صديقتها الراقدة في السرير الأبيض بين

أحضانها، انطلقت دمعة وحيدة من عينيها، غسلت خدّها وخد
منى، التي تأثرت جداً بحنان صديقتها.. قالت تخفف عنها:

- لا تبكي يا مريم.. أنا بخير.. والله بخير.

تنهدت، شدت عليها في حضنها، قبلت مفرق شعرها، ابتعدت قليلاً قبل أن تنزل دمعة أخرى.. ●

أنا.. وهو.. وهو

عندما اقتحم الغرفة فجأة.. وجدني معه في حالة من الذوبان، حتى ما استطعت النظر إلى عينيه.. كنا معًا في توحّد لذيذ.. لم ينتظر حتى الرّد.. أدار ظهره وصفق الباب بقوة.. أزعجنا صوت الباب، ولمته في قرارة نفسي.. واسترسلنا في حالة التوحّد التي لم يستطع أن يفصمها.

لا أدري، بل أدري ماذا يعتريني من حالة خاصة جداً عندما أنفرد به وينفرد بي.. أبدأ بالاقتراب، وقد جرت العادة أنه هو المرهون تاريخيًا بالاقتراب، لا أضع طقوسا. أنا بالتحديد أخرج عن المألوف والدارج من الأعراف والمنظومات التابوهية.. وأفرح كوني تجاوزت.. أقترب منه أتلمسه.. أدغدغ أطرافه، قبل أن أصل إلى الرأس، أضمّه أحيانًا.. وأقبْل حينًا.. متلهفة منساقة بوعي وإصرار.. ورغبة، إنه بامتناعه أحيانًا يفتح شهيتي أكثر للفعل، أقدّر فيه أحيانًا.. وكثيراً لا أجد له مبررا، خاصة في حالة إجهاده واستنزافه.. المُبهج فيه دون سواه أنه بالآخر لا يمانع يتجاوب دون افتعال.. يُقبل بشغف وسبق حتى تتلاشى الشكوك داخلي.. أطمئن، أعطيه أكثر..

أنشغل به عن سواه. بجرأة غريبة. ذات يوم شكاني لأمي.. أعطتني أمي درسًا في الالتزام والأولويات.. ابتسمت ولم أعلّق، ما استطعت وما استطاعت أن تعي ضُعفي في لحظات الاستغراق

والتوحّد.. وإلى أي مدى أذوب فلا أرد.. أغوص أكثر معه.. بل هو في محاولاته هذه يُقربني من ذاك ويجعل داخلي يرفضه.. أبتعد عنه وأقترب من ذاك.. كأنه يسعى لذلك.. كأنه يعني كأنه يريد.. كأنه..

لا أدري، ما أدريه حالة الوجد والصدق، الانجراف مع ذاك متعة.. تبتُّل.. عشق.. قدسية، وذاك كذلك لا يعصيني، تجاوب معي إلى أقاصي الحدوديات.. وعندما أرى ذوبانه.. ولعه.. شوقه.. صدقه.. بلا افتعال.. أنسي.. أتناسي.. أتجاهل النقدات منه.. ومن أمي.

ذلك اليوم جاء متأخراً، وكنت في توحدي مع الآخر.. لم أعره اهتماماً.. نظرت إليه.. عند اقتحامه الغرفة، وواصلت مع ذاك.. صفق الباب، وأيضاً يومها.. لمته في قرارة نفسي.. نعم ألومه.. هو ليس بصغير.. هو يقدر.. يفهم، كبير.. فلماذا يضعف أمامنا.. يتقزم.. يتلاشى داخل ذاته.. زمان كان هو يحرّضني على الاقتراب من ذاك، على احتوائه.. على التقرب منه.. عتب أياماً لانشغالي عنه بذاك وانشغالي بنفسي أكثر.. هو.. هو من الأسباب الرئيسية لزيادة الحب للآخر.. حتى أضاء في سماء رغباتي حافزاً أكبر للعطاء، ووجدتني من خلال توجهاته ونصائحه أعود بشوق وحميميةً أكثر خاصة عندما ننفرد ببعضنا البعض.. يقترب أقترب.. يُقبِّل أُقبِّل.. بتلهف يجرفني.. نحلّق.. ننسى الخارج.. ننسى الداخل.. نبرد.. نسخن، يصب بي عصارته.. أعطيه سخونة أنفاسي.. نذوب..

ونسى الكون الخارجي .. في حضرته أحس أنني ملكة.. وكيف لا وقد فضلني على كل النساء.. فكان.. وأصبح لي.. نتخاصم.. نرضى، نتزاعل.. نصفو.. نختلف ونتفق.. ربما في أحيان كثيرة أفضله عليه لهذه الميزات، ديمقراطيته السمحة عنه الديكتاتور الذي متى ما أرادني أمرني بترك كل ما في يدي من أجله.. لم يفكر ويسأل نفسه لماذا أفضله عليه وأقترب منه أكثر وأكثر.. لم يكن يعي بأن الآخر هو البحر والشجر.. الشمس والنار والزهر.. لم يكن يعرف.. بل لم يكن يريد أن يعرف بأن علاقتي بالآخر لم تكن عسلاً كلها بل بعض قرصات، أوقاته كانت تميتني.. تشلني ساعات وأيامًا وشهورا حتى.. أعود إليه بحب، متعلقة صوب الأبعد، معًا نسبح.. نعم لقد كان يستقر في تجاويف القلب.. في خلايا الروح.. ونبضات العقل، صحوه ومماته.. هكذا كنا أنا وهو نبتعد عن بعضنا، ونعود نتوحد داخل مغارة أسرارنا.. يحتوينا رحم المكان.. نتغذي من وريد مشترك.. الحب.. ونكون في زنزانة نرضاها باختيارنا أنا وهو.. وهل يحب المسجون زنزانته.. أنا وهو نحب.. مثل الرهبان نسبح بخضوع وخشوع .. نسبق الزمان كي نتوحد.. نتلاحم.. نغرد بل نسبق الزمن بلهفة، نبتعد عن لوثة الخارج وصخبه وصراعه.. في علاقة حميمية نغرد، يمد لي يده هادئًا، عفويًا، صادقًا، لا يكبت دواخله.. أحاسيسه.. يشعر أنه ملاذي.. معتزلي.. نصلي معًا صلاة الحب والهوي.. صلاة النجوي.. لذا فأنا أسيرة من غير أسر.. أحبه أكثر منه.. تدفق بحر الزهر..

تشكل في كلمات عسل القلب، يتجمد في حروف، أخفيت في باطنها أسراري، كشفت في سياقاتها أقنعة عالمي الوردي، حملتها كما أحمل وليدي، رفعتها كما أرفع تاجي ليلة زفافي، أودعتها نحو مشرق الشمس لتحملها رسالة حب في نورها، يتسلل، إلى مكامن العشق وتلافيف الفكر، جلست وحيدة أنتظر لحظة الميلاد، لن يطول انتظاري، عدت فرحة بالوعد، مال خيالي على إطلالة وجهه الجميل يحمل اسمي ويقدمني بطاقة حب إلى الواعدين.

عدت من المطبعة بعد أن سلمتهم الجزء الأكبر من ملحمة الحب هذه، توجهت إليه متلهفة بعد أن أنجزت ما في داخلي، بحثت هنا وهناك.. لم أجده، وفي زاوية الغرفة وجدت الآخر ينز ألما.. تتساقط الدماء/ الألوان من أطرافه: الأحمر.. الأزرق.. الأخضر.. الأسود.. لقد استغل غيبتي واقتحم عليه المكتب، دخل معه في صراع، يبدو أنه تغلب عليه.. وفي الجهة الأخرى من الزاوية وجدته/ حبيبي متكسراً، مسموماً بفتافيت الغيرة والغضب.. لقد انتصر عليه، شريكه بي ●

هلا يا عيوني

كان الفوهرر محتدم الوجه، يقف على المنصة، نظرته النارية تثير الصفوف المتراصة باتساع الميدان، وقصته «جناح الغراب» تتدلى على جبينه. الأعلام الحمراء تغطي كل المداخل وتتقدم كل الصفوف.. لكن الصلبان عليها ليست كلها معقوفة! عجيب راح يتلهى بحصر أشكال الصلبان، وأخذ يعد: هذا معقوف، وذلك صليب عادي، وذلك دائري كالزوبعة. التقت عيناه بعيني هتلر، اجتذبته النظرة النارية كما يلتقط المغناطيس مسماراً من بين نشارة الخشب،

قال له الفوهرر:

- أنت.. هناك.

حاول أن يتهرب، نظر جانباً متصنعاً الهدوء.. لكن النداء تكرر..

- أنت.. أنت.. يا «هر» جاسم!!

ازدرد ريقه بصعوبة:

- «داهية، ويعرف اسمي!».

- تعال إلى هنا؟ كم نوعاً من الصلبان وجدت؟ ولماذا تهتم بهذا الموضوع؟

توقفت دفعة الريق فوق الحنجرة، حبست أنفاسه.. حاول أن يعتذر.. دفعته يد ضخمة من خلفه في اتجاه المنصة. لم يملك

الامتناع، زحف كأنما يتجه إلى قاطرة لتدهسه.. نظر بِذُلّ إلى صاحب اليد التي تسوقه إلى حتفه، فلم يجد أحداً خلفه.. كان الميدان خاليًا تمامًا! متى انسحب الناس، وكيف؟ وهل يأذن لهم هتلر العظيم أن ينصرفوا ويتركوه واقفًا على المنصة؟!

بسرعة فكر:

هل هذا لمصلحته، أو ضده؟.

وقبل أن يصل إلى قرار كان أمام الفوهرر وجهًا لوجه، أنفاسه تغطي وجهه، قبل أن يرفع يده بالتحية المقدسة هاتفًا كما يجب: «هاي هتلر»؛ كان يشير بإصبعه في اتجاه عينه تمامًا، ويقول له بصوت غريب:

- جاسم ما وعدتني أن تتزوج أوليفيا.. أنت تعد، وتخلف!

فرح كثيراً حين سمع هتلر يخاطبه بلهجته.. لكن.. لم كان صوته يشبه الممثل حسين رياض في فيلم مع عبدالحليم حافظ كان اسمه...

لم يعثر على اسم الفيلم، تضايق جداً، رفس برجله، أصابت حافة السرير، أوجعته، استيقظ.

- شنو هذا؟! اللهم اجعله خير.

تطلع إلى الساعة بجواره على طرف الطاولة، لا يزال الفجر بعيداً، كل الذي نامه نصف ساعة.. كيف اتسعت ثلاثون دقيقة للسفر في الزمان والمكان؟ ابتسامة متعبة، دس قدميه في النعال، واتجه إلى المبرد.. أخذ جرعات ندم عليها رغم عطشه.. الماء البارد ينبهه، وهو في حاجة إلى النوم..

استلقى من جديد، راح يتملق النوم بكل طريقة سمع عنها أو جربها من قبل. عد حتى المائة، مائة وعشرين.. تلعثم، تنبه، بدأ العد من جديد، وصل إلى مائة وخمسين.. انتقل إلى آية الكرسي، ثلاث مرات قرأها، قالوا لا تتحايل على النوم فتح عينيك في السقف وانتظر، فتح.. وظل ينتظر، أخذ كل الأوضاع الهندسية مع المخدة.. الوقت لا يتحرك.. ربع ساعة ما بين مقابلة هتلر وكل هذه الأهوال، المخدة تحت رأسه، فوق رأسه، بين فخذيه، على صدره.. استدار على نفسه مثل قطعة الكرواسان، تلوى مثل الدودة، تمدد مثل سمكة ميتة، وضع صف وسائد خلفه، واستند مثل عجوز يعاني أزمة ربو، نقل الوسائد تحت ساقيه، أصبح مقلوباً مثل امرأة في غرفة الولادة!

ماكو فايدة!

«النوم شيء ليس في الكتب» أعجبته العبارة، لكنه متأكد أن الكلمة الأولى ليست «النوم».. ما هي الكلمة الحقيقية؟ حاول، لم يجدها.. هل هي «الشيء»..؟ ما هذه السخافة؟ هل يستطيع أحمق أن يقول: الشيء شيء ليس في الكتب؟ استمر في المحاولة، اجتذب إلى الجملة كل الكلمات المختزنة في ذاكرته على وزن النوم: الشوم، العَوْم، الدوم، اللوم، الصوم.. لم يصل إلى نتيجة..

فكر في حل آخر يوصله إلى الكلمة الناقصة، سأل نفسه:

– ما هو الشيء الذي ليس في الكتب؟

احتار في الجواب..

حين فكر في العبارة المحفوظة، في الحقيقة، في الواقع، يعني.. فإن دل هذا على شيء فإنما يدل.. «ابتسم.. ابتسم في ظلام الغرفة لأنه تذكر مديره في الشغل، الذي يبدأ اجتماع أية جلسة بهذه المصكوكات اللغوية الجاهزة.. ما علينا منه..»

المهم.. ما هو الشيء الذي ليس في الكتب؟

أشياء وايده..

طيب... ما هو الشيء الذي في الكتب؟

وعاد يرمق الساعة على طرف الطاولة، عقاربها تضيء بفسفور أحمر. ربع ساعة أخرى..

يا نوم، بحق الله، تعال، في أي كتاب أنت؟

ولم يعرف ماذا حدث...

لم يعرف هل أيقظه ضوء متسلل من بين الستائر صب في عينه نصف المغمضة أم هو جرس التليفون؟!

جاءه صوتها الراعش بالحنان:

- الله بالخير يا وليدي.. أزعجتك؟

اعتدل قليلاً..

- لا يمّه صبحك الله بكل خير، أنا ما نمت عشان أصحى..

- صوتك نايم.. زين..

- شويه.. نمت شويه..

- أنا جاهزة..

- لازم يمه؟ وفري صحتك..

- لازم هذي أم عيالك... و..

- أعرف، أعرف، ما حاجة تقولين.. كيفك يمه..

عاد ينظر إلى الساعة..

- شوفي يمه، خلود كلمتني في منتصف الليل.

قالت:

- أمي طالعة المطار الحين.

- من وين كلمتك خلود حبيبتي؟

- من بيت خالها في فرانكفورت..

- كم يأخذ الوقت؟

- يبدلون في باريس طيارة ثانية.. يعني فيها ساعتين.. ثلاث حتى توصل.. بعد ساعة أسأل المطار..

- ولهت على خلود..

تنهد بحرقة.. سألها مجارياً:

- وياسمين!

- كلهم أولادك وكلهم نور عيني، لكن ياسمين مو بهالكثر مثل خلود..

- كلهم أولادي.. كلهم يتساوون؟!

- لأ، خلود تناجرني وايد، تذكرني بطفولتك، يوم كنت في عمرها، ياسمين مثل أمها.. ساكتة..

عاد يتنهد بحرقة:

- طيب استريحي ساعة، ساعتين ولما أعرف متى الوصول أمر عليك..

- زين مع السلامة..

أعاد السماعة إلى مكانها لكن المكالمة استمرت تلعب بخياله.. خلود تحدثت إليه من منزل خالها أدولف، حاول أن يستعيد كلماتها بدقة. هل قالت ماما في طريقها إلى المطار، أو أننا في طريقنا إلى المطار؟ كيف فاته أن يكتشف الفرق، ويدقق؟ وقعت نظرته على «التدخين ضاز جداً بصحتك، ننصحك بالابتعاد عنه» فمد يده والتقط سيجارة. هل يعقل أن تعود وحدها وتترك البنتين «رهينة» عند خالها؟ أدولف عاقل ولن يسمح بهذا العبث وبيننا معاملات تجارية، إذا أخته تمادت في إثارة المشاكل، لابد أن يتأثر، وهو الخاسر!!

امتدت يده إلى التليفون، وبعد أن ضرب المفتاح الدولي تراجع، وضع السماعة.. لا داعي.. ماذا يظن أدولف؟! أنني خفيف، متوقع الغدر؟ لا، أنا لست خفيفاً، حتى لو كنت متوقعاً الغدر.. إذا حدث لكل حادث حديث..

تضايق جداً من أن مخاوفه ساقته إلى هذه النقطة، حاول أن يخفف عن نفسه بأن يتذكر لها شيئاً جميلاً.. الآن قفزت الكلمة المجهولة.. «الذوق» تمام، «الذوق شيء ليس في الكتب» فعلاً، كان هناك يعقد صفقة سيارات جديدة مستعملة.. ساقته عمليات المكاتب إلى أدولف، ألماني درجة أولى، ثم رآها في سفرات تالية.. هتلر قال: «الألمان أحسن ناس في العالم، السلاف أجمل نساء في العالم»، حين عرف أن أمها من أصل روسي قال على طريقة ديكارت: أنا أفكر إذاً فأنا موجود، أنا أتزوجها إذاً فأنا أمتلك العالم.

تزوجها.. وأخذ العالم بين يديه..

بعد سنة جاءت خلود، سنة أخرى وصلت.. ياسمين، سنة ثالثة ظهرت عليها علامات الضيق، السنة الرابعة.. تحول إلى مضايقة.. السنة الخامسة تحولت المضايقة إلى جفوة.. وصلت حد «الاعتصام» في السرير.. والصمت!

تقول له :

-- أنت تغيرت..

وأحيانا :

أنت ظهرت على حقيقتك.. ولم تكن الرجل المناسب.

يقول لها :

-- تزوجتك بطموحي، لا بقلبي.. وهذا جزائي، ولن أتوب عن أكل المكبوس، والهريس، وشرب اللومي حتى لو خرج الإمبراطور غليوم من قبره!!

أشعل سيجارة أخرى، ولم ينظر إلى الجملة التحذيرية..

«تكون مصيبة لو جاءت وحدها وتركت البنتين، ولو بدعوى تعليمهما تعليما داخليا راقيا».

فعص السيجارة بعد نفس واحد. لعب خياله.. استولى عليه حلم اليقظة، واستهزأ بنفسه كيف يكون وهو رجل المال والأرقام ضعيفًا، يحلم، ويهرب إلى الخيال بهذه الطريقة!؟.

كانت قدمه في الفخ، يتذكر منظراً رآه في برنامج عالم الحيوان: ذئب في منطقة ثلجية، أطبق فخ حديدي على قدمه، رأى الذئب الصيادين المختبئين يقبلون عليه، عرف بغرائز ملايين

السنين من العداء الطبيعي أنه الموت! من الذي أخبر الذئب أن أجداد هؤلاء الصيادين سلخوا جلد أجداده وباعوه في الأسواق؟ بقوة اليأس جذب الذئب جسده في خطفة واحدة.. ترك قدمه في الفخ، وانطلق يعدو بثلاثة أرجل، وخط أحمر يلون الثلوج البارقة.

وجاء صوت مذيع التلفزيون كئيباً، ولم يعرف لماذا كان المذيع ينظر إليه وكأنه يعلن الخبر له وحده:

«جاءنا الخبر التالي.. فوق المحيط وبعد مغادرة مطار أورلي بنصف ساعة سقطت طائرة ركاب.. من بين الضحايا..»

سمع اسمها بدقة، إنها هي.. ولكن: البنتان.. خلود وياسمين؟! أحس بقهر ليس له مثيل.. طاح الجمل بما حمل.. والآن: أين يذهب، ماذا عليه أن يفعل؟!.

نظر إلى شاشة التلفزيون.. كانت سوداء.. باردة.. صامتة.. لم يعرف من الذي أداره، من الذي أغلقه؟!

قبل أن يفكر في الجواب، أطل المذيع نفسه، النظرة مختلفة، بحزن أقل، لا.. بدون حزن.. لا.. بسعادة مختفية وراء اللهجة المحايدة.

جاءنا التصحيح التالي من إدارة الطيران:

«إن زوجة جاسم الألمانية الأصل هي وحدها التي كانت على الطائرة.. أما ابنتاه فهما لاتزالان في مطار أورلي، وعليه أن يذهب للقائهما فوراً وبخاصة أن البنت الصغيرة ليس معها حفاظات"».

وانتبه إلى رنين التليفون. جاءه صوت الأم:

- جاسم يا وليدي.. وينك ساعة ساعتين ما اتصلت؟ خير يا وليدي؟

التقطت عينه الوقت. قال: نمت يايُمَّه.. حالاً.. خمس دقائق أنا عندك.

قفز، دخل في الدشداشة الجاهزة، سقطت قدماه في الحذاء، وضع الغترة على كتفه، رش عطراً خاصاً.. أدار السيارة بالريموت كنترول وهو يغلق الباب.

الله ستر...

استقبله صديقه مدير الجوازات على الباب الداخلي، أخذه من طريق جانبي إلى ممر الوصول..

كان الركاب يلهثون بأحمالهم في الممر على الأرض الناعمة.. حمد الله كثيرا على الوصول في آخر لحظة مناسبة.. أطلت خلود تحمل عروستها، ففاح عطر الحياة من قلبه.. ومن خلفها كانت ياسمين نائمة بين ذراعي أمها.. نظر إليها.. إنها كما هي دائماً.. تقدم إليها، قدمت إليه الطفلة النائمة.. حملها بين يديه. أعفته هذه الحركة من معانقة زوجته أو تقبيلها عند اللقاء كما هي عادتهما..

قال هامساً:

- هلا أوليفيا.. هلا يا عيوني..

مضى أمامهما.. يتمعن في ملامح الملاك النائم بين يديه. نسي تماماً موضوع التلفزيون وكل الموضوعات الأخرى ●

الثالثة ... آه

الدشداشة المنشاة، الغترة الحمراء[1]، النعال النجدية[2]،
آه.. يقلقه ثلاث شعرات نافرة في حاجبه الأيمن، لابد أن تعود
إلى أماكنها.. لا يعرف لماذا تلتوي وتدور، حدث أن قصها،
نتفها، صبغها، حاول ترويضها بكل وسيلة ولكن لم تتروض
أبداً، ظلت كما هي، ما إن تطول إلى سنتيمتر واحد حتى ترتفع
إلى أعلى، تغادر خطها المستقيم لا يعرف لماذا، تلتوي حول
نفسها مثل ثعابين صغيرة مشاغبة، تنطلق إلى أعلى مثل فنار
الميناء، ترسم ثلاثة خطوط كأنها رءوس أسهم تتجمع كما
يتجمع الأشرار لارتكاب جريمة.. ويكون هو الضحية.. إنها في
الصعود، يرسم حاجبه الأيمن إلى أعلى.. تعطيه هيئة..
القرصان..

أين شاهد صورة القرصان؟ لابد في أحد الأفلام، بلادنا لم
تعرف القراصنة، مرة واحدة ذكر الشيخ عبدالعزيز الرشيد
سيرة قرصان كويتي، اسمه «إرحمة» ولم تدم سيطرته على
صفحة الخليج، لقد قتل، وفي سيرة هذا القرصان الخليجي
الوحيد أنه كان لا يغير ثيابه، يعني، كان بائساً جداً، إنه يختلف
كثيراً عن القرصان الذي نشاهده في السينما، حيث العنفوان

---

(١) الدشداشة + الغترة: زي الرجل الخليجي.
(٢) النعال النجدية: نعال للقدم.

والبطش، إلى جانب الوسامة المجروحة بالغطاء الجلدي يطمس العين اليسرى، أو يداريها، وعند هذا القرصان تقترن الشراسة والعاطفة الثائرة.. إنه يلعب بالسيف وبقلوب العذارى، يداعب مقبض سيفه، وحلمات الصدور الناهدة، يقبل الرصاصة قبل أن يقذفها إلى قلب عدوه، ويقبل الشفاة الملتهبة بعشق القوة..

هو لم يحلم أبداً بأن يكون قرصاناً، بالعكس، يريد أن يترك في وجدان الآخر، أو الأخرى، انطباعاً بالوداعة، بالرقة، بأنه العاشق الحالم الذي لم يجد من يفهمه، هل يمكن أن تكون هذه الشعيرات النافرة إلى أعلى صيغة اعتراض على حلمه الذهبي النابع في قلبه؟..

حرص على وضع المسباح العاج في جيبه، نثر قليلاً من العطر على كتفيه، هل حلم بأن تتوسد كتفه، وأن يجد عطره طريقاً إلي أنفها الرقيق؟

لنفترض أن هذا حدث، ماذا يمكن أن يقول لها:

أحبك، أنا عاشق، صدقيني إنني متيم بك؟ راح زماني هدرا وكنت في انتظارك؟!

يالها من عبارات مستهلكة تعلن عن كذبها، إنها مثل ساندوتشات الشاورما والهامبورجر، بضاعة حاضرة، صيغة جاهزة، حب معلّب، بل حب محنّط في جمل مقبورة أو مهروسة من كثرة التداول لم يعد لها معنى. إذن ماذا سيقول لها؟ لماذا لا يجرّب الصدق.. الصدق الصدق، وليس الصدق كما يتخيله؟ مشكلته أنه يفكر في اللحظة الآتية، ويرسم أطراف المقابلة،

ويتخيّل عبارات الحوار، وعندما يتحول الخيال إلى حقيقة، ينصرف قلبه ووجدانه إلى شيء واحد أن يحقق ما سبق له أن تخيّله.. وهنا تحدث فجوة رهيبة بين الواقع وما كان يتمناه.. ويشعر محدثه أنه شخص مخاتل.. غير حقيقي.. مزيف، وتنتهي المقابلة إلى الفشل..

لن يسمح بالفشل هذه المرة، إنها الثالثة، والثالثة ثابتة.. الثالثة.. آه.. يؤمن في أعماق نفسه أن الثالثة مهمة جداً، عندما كان يلعب وهو طفل، ويصطف مع الأطفال للتسابق في الجري كان يأخذ مركز القيادة، كان يقول: واحد.. اثنين، ثلاثة.. ولا شيء بعد ثلاثة، إنما هو الانطلاق في الجري والمسابقة..

استعاد ذكرى الآه الأولى، ماذا لو حدثته عنها؟ حقًا ماذا لو قالت له لقد تزوجت قبلي مرتين فلماذا أكون الثالثة؟ والثالثة آه؟! هل من المناسب أن يلصق العيوب بهما؟ بالآه الأولى والآه الثانية؟ ألا يجعلها هذا تخاف، وتتوقع أن تكون هي «الآه» الثالثة؟ لكن.. لماذا يزيّف الحقيقة؟ إنه يؤمن في قرارة نفسه أنه لم يخطئ، بل إنه إنسان غير قابل للخطأ.. إنه يطيل التفكير، يقلّب الرأي، يطرح كل الاحتمالات، يبحث عن وجه الصواب في كل ما يفكر فيه، يستخدم المنطق، والأيديولوجية، وحق المخالفة، والرأي والرأي الآخر، وكل هذه الشعارات البراقة التي تدل على الثقافة.. فكيف يكون على خطأ؟

انتهى من نسف[1] الغترة، وضع المسباح في جيبه، وبرقت

---

(١) نسف: تعديل.

الأزرار الذهبية في أعلى الدشداشة، قام وألقى نظرة جانبية على شعره الذي لمع بسواد ربّاني وكأنه مصبوغ بالكحل البدوي الشهير، وجدها في انتظاره حسب الموعد، وكانت نقيضاً له في كل شيء.. كانت بثياب العمل التي رآها بها في النهار.. غلبته الدهشة..

هل يعقل أن هذه الفتاة خرجت من بيتها للقاء الزوج المنتظر، للقاء حبيب؟ هل يعني هذا أنها لم تفكر فيه لحظة واحدة ؟! لو أنها فكرت فيه لحظة لانعكس تفكيرها -- في الأقل - على ثيابها، على منظرها.. وجلس..

قالت:

- ليس إلاّ القهوة..

قال:

- هذا مشروب العجائز وقارئات الفنجان..

قالت مبتسمة:

- قرأت فنجاني.. وانتهى الأمر..

انتهز الفرصة:

- وجدتني في القاع.. وأمامي طريق سفر؟.

قالت مبتسمة ذات الابتسامة الهادئة:

- وجدتك على وجه القهوة طافياً، وأمامك بيت وحياة مستقرة..

تنهدّ، قال بصدق:

- الحمد لله..

- ولكن عندي استفسار..

بلع ريقه، لعب بالمسباح بتوتر ظاهر، عدّل وضع الغترة آه.. إنها الشعرات النافرة إلى أعلى؟! اللعنة!.. صورة القرصان تسطع في خياله.. اللطخة السوداء تغطي العين اليسرى، والوجه المشدود، والأمر بذبح الضحايا.. تخلّص من موجات العنف التي تسبح في داخله، بجهد كبير، تطلع إلى وجهها السمح يستعين به على الخروج من الجو الدموي الرهيب.

قالت:

- لن أسألك عن الأولى.. لماذا طلقت الثانية؟ أنا لا أنبش في الماضي، فقط على سبيل الخبرة والمعرفة بالشخص الذي يريد.. وأريد.. آه.. أريد الاقتران به؟ انتشى قلبه بالفرح لما يسمع، ولكن.. لماذا الثانية؟ وهل يمكن أن تبدأ حكاية من منتصفها؟ إنه لا يعرف لماذا طلق الثانية إلاّ بعد أن يذكر لماذا فارق الأولى..؟!

قال لها:

- ولماذا التنكر للأولى..

- فليكن..

- فليكن ماذا؟

- لماذا طلقت الأولى..

- لم أطلقها..

- لماذا؟

- لأني لم أكن تزوجتها.. كانت خطبة، مجرد وعد بالزواج.

أطبقت عليه:

- هل ترى أن الوعد لا يستحق الوفاء؟ هل القدسية محددة بتوقيع المأذون؟ كنت أعتقد، وأنت متحضر أن الأمر عندك يختلف كثيراً..

انحنى أمام زخة الرصاص المنهمر على رأسه.. انحنى حتى أخفى رأسه في الرمال كالنعامة.. أنقذه النادل القادم بفنجاني القهوة.. وكوبي ماء بارد تكثفت على جداريهما رذاذات ماء، فجسدت ما ينعم به من راحة البال...

قال بيأس يحاول أن يكون لا مباليًا ليوحي بالثقة:

- لا.. لا.. ، وصمت..

قالت بجسارة:

- ماذا تعني بلا.. لا..

- ليست المسألة وعداً، وتهرباً لا سمح الله من الوعد.

- ما هي المشكلة إذن؟

- المشكلة أنني اكتشفت أن خطيبتي ضلت طريقها إلى ما تريد.

هزت رأسها، قلبت كفها، رشفت وجه الفنجان، قالت:

- لم أفهم

- حسنا، المسألة بسيطة.. الآنسة معجونة في السياسة، عقلها، دمها، أعصابها، كلها.. أمريكا الإمبريالية، القوى العظمى، حق تقرير المصير، أفغانستان، حقوق المرأة، العولمة.. تصوري، أي والله، العولمة، ولم يتبق لها إلا الحديث في

الخصخصة، والفرانكفونية.. وتقدم طلبًا للعمل في هيئة الأمم.

- ومـاذا في هذا كله من مشكلة؟ هذا دليل على اتساع أفقها..

رمقها بنظرة متشككة، هل تثيره؟ تستفزه؟ تريد أن تعرف ماذا في أعماقه؟

فكر، دبر، تمهل، قال:

- لا مانع، بل أنا كمثقف أرحب بالزوجة المثقفة، ولكن الثقافة لا تصلح أساسًا لبناء حياة زوجية سعيدة، وببساطة شديدة أنا أريد أن أكون زوجًا سعيدًا، وبعبارة محددة مختصرة.. هل أجد هذه السعادة عندك؟ هذا ما أسعى إليه، ودعوت الله وصليت له أن يحقق رغبتي.

ابتسمت مشجعة، رمقته، ارتفعت أنامله تبرم الشعرات النافرة لتلغي صورة القرصان، تحسس سبحته القابعة في جيبه. ابتسمت مجددا..

قالت:

- من حقك.. السياسة مستوى من الفكر، والفكر مهم، طبعًا أنت تشاركني في هذا؟

بادر متلهفا:

- طبعًا.. طبعًا.. ولكن..

- دع «لكن» هذه لي..

- ولكن الزوجة الحقيقية لابد أن تكون حذرة في طرح القضايا العامة مع زوجها..

(احمرّ وجهها عند ذكر كلمة زوجها، تخيلت نفسها معه في الفراش، تشوقت في لمحة إلى هذه اللحظة ولكنها آمنت أن الوقت لا يزال مبكراً لأن تحلم بهذا).

- أقصد أن الحياة في المنزل ليست امتداداً للحياة في الخارج، البيت له أصول..

تصيد الكلمة العزيزة، تنهد، قال بحرارة:

- له أصول.. أحسنت والله، هذا ما أفكر فيه ولم أستطع الوقوع على الكلمة المناسبة.

أدهشها إطراؤه، فرحت بأنه لم يستطع، وهي استطاعت، قررت أن تزيد فرحها، وفرحه، قالت:

- فعلاً.. البيت ملك أهله.. الزوج والزوجة، الحياة في الخارج ملك المجتمع.. لهذا صفاته.. ولهذا مطالبه..

- نعم الرأي.. هذا ما يعجبني فيك.. أنك تعرفين تماماً ما هو المطلوب من زوجة محبة، فاهمة، تريد أن تعيش في سلام..

- والثانية!!؟

انقضت عليه الكلمة كحجر انحدر إليه من قمة جبل، لم يكن يظن أنها نسيت، هو نفسه كان قد نسي، فرح بقدرته على التملص من تهمته الأولى، فهل يحصل على البراءة أيضاً في الثانية لو أنه بدأ بالثانية لكان الأمر أيسر عليه.. كانت الأولى مجنونة بالسياسة لكن الثانية.. لم تكن مجنونة مطلقاً، كانت غارقة في مسئولياتها.. وكان طرح قضيتها لا يحتاج إلى وضع صورتها في مقابل صورة الأولى، لأن هذا يخدمها، كان يريد أن

يركـز عليهـا وحدها، لتبدو عند التي تسمع امرأة مهملة لزوجها، غارقة في ماضيها، مرتبطة بأصولها الأسرية قبل الزواج، وهذا كله نقص في وعيها بأهمية الزوج وحقوق الأسرة الجديدة..

صمت

عادت تكرر :

- والثانية..

- الثانية.. كخطوة ثانية.. تجاوزنا الخطوبة إلى عقد القران، ولكن لم نجتمع تحت سقف واحد.. لم يكن هذا ممكنًا..

- لماذا؟ هل رأيت منها ما يخدش أخلاقها؟!

سارع نافيًا :

- لا. لا، معاذ الله، كانت فاضلة ومحترمة، ولكنها كانت، بالتحديد، مثل المركب المربوطة بالشاطئ، عائمة، وتعجز عن الحركة.

هزت رأسها :

- بصراحة.. لم أفهم..

- كانت تحب أهلها..

- وهل في هذا ما يعيب؟

- لا، طبعًا، صدقيني، أنا أيضًا كنت أحبهم، ولكن لشدة حبها لهم صرت أكرههم.

- أعوذ بالله..

- وأنا أستعيذ به مثلك، وآسف لهذه الكلمة، ولكن هذه هي

الحقيقة.. لماذا شرع الدين فترة الخطوبة؟

لكي يتعرف كل طرف على طبائع الآخر.. ومن المؤسف أن التعرف انتهى إلى الفشل..

- حتى الآن.. لم أفهم..؟

- مثلا،.. مثلاً.. إذا جلسنا مثل هذه الجلسة، تصوري.. أنا وأنت نتكلم الآن عن تجربتي في الحياة، أنت تتكلمين عن رأيك في هذه التجربة، هذا نوع من التفاعل الحي الذي يكشف الجوانب الغامضة في الشخصية، وبذلك.. إذا تزوجنا.. مثلاً.. إذا تزوجنا.. نكون على اتفاق، كل منا يعرف الآخر بقدر الإمكان طبعًا.

قاطعته:

- جميل كل هذا، ولكني لم أفهم.. كيف كانت مثل المركب المربوطة بحبل..؟

- كانت مشدودة إلى أسرتها، إذا جلسنا معا، مثل هذه الجلسة مثلاً.. لا كلام لها إلا عن أختها المتفوقة في الجامعة التي يطلب ودها الأساتذة، ووالدها الذي يرفض وضع توقيعه على أي ورقة إلا إذا وجدها معتمدة من رئيسه، ومتطابقة مع اللوائح والقوانين، حتى أخيها الصغير الذي لا يقبل أن يشارك أولاد الشارع اللعب إلا إذا كان الرئيس.. تحكي قصته بالتفصيل الممل..

- أنا أتفق معك، هذا أكثر من المطلوب.. ولكنه يدل على طفولة وصفاء نفس.

- وأنا أريد زوجة، وليس طفلة، وحنكة، وليس صفاء رومانسيًا تافهًا. وبصراحة : أنا أعتقد أنك لست مثل هذه ولا تلك .

أسبلت عينيها، رشفت من الفنجان الرشفة الأخيرة.. قالت :

- فما العيب الذي ستكتشفه في الجالسة أمامك..؟

طفرت ابتسامته الجاهزة، تحسس سبحته في قاع جيبه، قال بثقة عالية :

- بصدق شديد.. الكمال، والجمال، هو ما أشاهده.. المهم أن يجمعنا بيت واحد..

وقاما بعد انتهاء فنجاني القهوة..

***

وجمعهما بيت واحد..

ودامت حياتهما عدة سنوات

وأنجبا البنين، والبنات

ولم تتكلم الثالثة في السياسة..

ولم تتكلم الثالثة عن أسرتها..

ولكنه في النهاية فارقها

***

في نفس المقهى، وربما كان فنجانا القهوة هما ذاتهما، دار الحوار..

وكان يقول للتي أمامه :

- أنت مختلفة تمامًا.. أنا عانيت.. تعذبت.. استحملت..

ضقت.. واحدة مغرمة بالسياسة، والثانية مثل السفينة المربوطة في الميناء لا تفكر إلا في أهلها، والثالثة كانت تعبد أطفالها ولا تفكر إلا فيهم.. أما البغل الذي يجر العربة.. أنا.. أنا بالتحديد.. لم تكن تعطيه أي اهتمام.. إنني أحلم بزوجة.. تؤكد لي كل يوم أنها زوجتي.. ها.. ما رأيك أيتها الجميلة؟! ●

فتاة وحيدة

هبت نسمة خاطفة من النافذة الغربية، طارت ورقة من زهرة ذابلة نسيت في مكانها من المزهرية المهملة لثلاثة أيام.. ورقة أخرى تدحرجت على الرخام الداكن، تابعت عيناها الورقة التي اصطدمت بخاتم ذهبي يلمع في وسطه فص الماس، في حجم حبة الحمص.. إنه خاتم أمها المرحومة.. ما الظروف التي جعلتها تتركه في هذا المكان؟ ما المناسبة التي اشترت فيها هذا الخاتم؟ ما الحالات التي أحاط فيها هذا الخاتم إصبع المرحومة؟.

تنهدت بحرقة، تخيلت وجه أمها المورد الجميل في ساعات رضاها القليلة النادرة، حين كانت تناديها طيوبتي. زحفت صورة أخرى للوجه ذاته في ساعات الغضب الكثيرة، كان أنفها يبدو كالسكين، وأسنانها كالمنشار، وهي تصرخ في وجهها:

- أنت يالنحسة.. يومك مثل وجهك يا طيوبة.

يالها من ذكريات قديمة. ولكن كيف صار هذا الوجه الآن؟ ما الصورة التي وصل إليها بعد ثلاثة أيام في القبر؟ شعرت بالإثم.. بالخوف، عجبت لجرأة خيالها.. عجبت أكثر لحالة «الفلسفة» التي استوقفت فكرها حول الخاتم الماسي، رشفت الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة، ألقت بصرها في حجرها وتساءلت بحزن:

- هل يحاسبنا الله على أمنية، أو خاطر شيطاني لم ينطق به اللسان؟

لم تستطع إبعاد السؤال عن عقلها . فكرت أن تسأل الشيخ خالد المذكور وهو من رجال الدين ، لكنها خافت أن ينظر إليها على أنها شريرة ، فتكون بداية للقيل والقال . فكرت أن تكتب بالموضوع إلى البرامج الدينية بالإذاعة أو التلفزيون . . إنها بحاجة إلى الطمأنينة . . بحاجة إلى الشعور بالبراءة من دم أمها ، وأن هذه الأمنية الشريرة ليست هي السبب في موتها . .

ضغطت الجرس ، جاءت الفلبينية بفنجان القهوة ، ارتشفت الوجه الرغوي الدسم وأشعلت سيجارة ، نفثت الدخان الذي انطلق كسهم راح يتبدد بعد قليل . .

لم يعد عندها من يتضايق من تدخينها ، أو من يشفق عليها ، أو من يشعرها بأنها لا تهمه في شيء ، هي الآن حرة . . وحيدة . . ضائعة . . لا تعرف هل تحزن ، وما هي درجة الحزن التي تليق بها . لكنها لا يمكن أن تفرح . . إنها إذا فرحت ستكون فتاة شريرة بحق ! ! مرت كلمة «فتاة» بخيالها غريبة ، قلقة . . مريبة ، مثل من ترتدي ثوب السهرة وهي تشرب شاي الضحى . . مع هذا احتضنت الكلمة بشوق ، إنها ذكرى والدها ، لا تستطيع أن تتخيله في وضعية الموت ، ولا تعتقد أبداً أن الأيام الثلاثة التي مرت على رحيله يمكن أن تؤثر على ملامحه ، أطل على خيالها بوجهه الأسمر المستدير ، ولحيته الصغيرة المحببة . رأته واقفاً أمامها يبتسم حتى ظهرت سنته المكسورة في وسط فمه ، دفع بطرف الغترة[1] وراء كتفه وهو يحملها بين يديه ، يقبلها يقول :

---

(١) الغترة : يضعها الرجل الخليجي على رأسه .

- طيبة فتاتي الوحيدة.

يدور بها في الليوان القديم، يحملها إلى الدوارف والمراجيح في العيد، وحين جاء زمان لم يعد يستطيع أن يحملها، ولا يتسع وقته لصحبتها، احتفظ لها باللقب «فتاتي الوحيدة» هو الابتسامة السعيدة. لم يغير شيئًا، رغم حظها المتعثر، لو كان الأمر بيده لاشترى لها زوجًا مهماغلا ثمنه، وقد شعرت أحيانًا أنه يحاول شراء زوج، ولكن المرحومة، الله يسامحها، كانت تفسد كل شيء وبقيت فتاته الوحيدة.. وحيدة، حتى بلغت الثلاثين.. كيف حدث هذا؟

ولكن مهلاً.. فقد مات الوالد في نفس السيارة مع الوالدة.. وهي لم تتمن له الموت أبدًا، بالعكس.. كما كانت تشعر دائمًا بأنه هو الذي يعيد إليها الحياة.. ويجعلها قادرة على احتمال «العنوسة» حين عرفت معنى هذه الكلمة، وعرفت أنها تنطبق عليها.. «عانس» حتى وإن تجنب الناس استعمال هذه الكلمة أمامها، تمامًا كما يتجنبون ذكر العاهات في حضور من ابتلاهم الله بها.

التقت نظراتها مع بقايا السيجارة الممتدة في الطفاية وقد تحولت إلى عمود الرماد الهش الذي تطاير مع هبة نسيم متسللة من النافذة الغربية.. ذاتها اكتشفت أن زهورًا كثيرة فقدت أوراقها وتعرت أو كادت، من تلك الهبة العابرة.. لم يبق منها غير أعواد جافة كالحة اللون، تعلوها دوائر منكمشة مثل الجماجم...

إن الله المطلع على أسرار القلوب وخفايا المشاعر يعرف أنها حملت أمها سبب عنوستها، وتمنت أن يريحها الله منها لتواجه حياتها من غير ضغوط، ولكن الله العادل لا يمكن أن «يسمع كلامها» لأنه يعرف الحقيقة، يعرف أن هذا الغضب يرتبط بمواقف كانت الأم فيها هي السبب في انصراف الخُطّاب عن طلب يدها، كم من خاطب جاء.. جاء من أجلها هي.. أو من أجل والدها، المهم أنه يتقدم فعلاً، ولكنه بعد وقت لا يطول يتسرب كالرمل من بين الأصابع.. يتبخر.. كالماء في إبريق منسي فوق الغاز.. يختفي.. لا يترك كلمة.. لا يقدم سببا، لا يذكر عذرا.. تنزعج.. تتلفت.. تبحث في الظروف فلا تجد أمامها غير أمها.

مرة أخرى تستحضر صورتها قبل مضي ثلاثة أيام.. كانت صبية.. فتية.. جميلة.. إلى آخر لحظة، لا تستبعد أنها في لحظة انقلاب السيارة كانت تطالع شعرها في المرآة، أو تجدد خيوط حاجبها أو خطوط شفتيها.. هذا الشعر الذي ظل ناريا يتوهج رغم ظهور الشيب، وهاتين الشفتين الممتلئتين تلمعان طوال أربع وعشرين ساعة..

وهي طفلة حاولت تقليد أمها.. ضربتها، وقالت:

- أنتِ صغيرة على هذا، والبنت المهذبة تفعل ما يناسب عمرها.

عندما استدار صدرها وردفاها سعت إلى اقتناء أدوات الزينة.. سخرت منها، في جملة قاطعة كحد السكين

قالت :

- ما عندك سالفة، وجهك مثل صحن المموش[1] وتحطين ماكياج؟! هل تشتغلين في السيرك إن شاء الله؟!

استقرت مرارة الكلام في حلقها، لم تبرحه أبداً حتى مع مرور خمسة عشر عاما، كما استقرت الملامح القاسية المتهكمة في شبكية عينيها، فلا تجد من وجه الأم إلا تلك السخرية القاتلة..

حاولت أن «تصالح» أمها أن تقترب منها، أن تستعطفها وتقول لها: أنت أمي.. علميني كيف أتزين.. كيف أضع المكياج، كيف أختار الألوان والموديلات المناسبة.. ولكنها لم تستطع أن تنطق كلمة واحدة..

لقد ورثت كبرياء والدها. الكبرياء الصامت الذي لا ينحني، وفي المدرسة علموها أن «الأمومة» بطبيعتها تضحية، وحب، وإيثار، وأن الأم بفطرتها تفضل ابنتها على نفسها، إن كل ما تشاهده من تصرفات أمها يصدم ما تتعلمه من الأمومة، كفرت بالتعليم وبالأمومة معًا، تعثرت خطواتها فلم تحصل على الثانوية إلا بعد تكرار الرسوب، وجاوزت العشرين حتى خجلت من دخول الجامعة مع بنات صغار، لا تستبعد أن ترسب بينهن فتكون أضحوكة هي في غنى عن أوجاعها، واعتزلت أمها ما أمكن، فعاشت في العلن على ابتسامة والدها، وفي السر على تدخين السجائر، وفي الأماني على انتظار الزوج الذي لابد

---

(١) المموش : أكلة خليجية.

سيأتي وتبدأ معه حياة جديدة.

انهـا تذكـرهـم جـمـيـعًـا.. أول خـاطـب، وثاني، وثـالث.. ورابع.. ثم هبط الصمت ولا يزال الصمت مقيمًا معها، يسلي وحدتها بالشرود والخيالات. كان أول خاطب أخًا لزميلة لها، في أول مرة تقدمت لامتحان الثانوية العامة، نجح ودخل الجامعة، وحصل على الشهادة الجامعية، وجاء يخطبها، حين نجحت لثالث مرة تقدمت فيها للامتحان.. الوالد رحب به، وشجعه، والأم قالت:

- هذا حافي ما يصلح، طمعان في مالنا.

ولم يسألها أحد رأيها. الثاني رفضت الأم سماع بقية اسمه، قالت: وع[1].. بيسري!!؟ هذا اللي ناقص.. ما أزوج الأصيلة لبيسري.

قال الأب:

- كل الناس لآدم، وآدم من تراب، وهذا شاب ناجح ونجاحه يكفي.

قالت بشراسة:

- نجاحه ما يحوله من بيسري لأصيل!!.

ولم يسألها أحد عن رأيها، وهي تعرف أن أمها بيسرية، وأن جمالها الملتهب هو الذي جعل والدها من العائلة الأصيلة يتزوجها، ويحمله على السكوت على شراستها، وعجبت لماذا تتنكر أمها لأصلها، والمهم أن الخاطب اختفى مثخنًا بالجراح.

---

(١) وع: دلالة على الاستهجان.

الثالث وصلت أخباره كإشاعة ولم يظهر.

والرابع قالت الأم:

– إن فرق السن كبير بينه وبين البنت..

وأشار الأب بأدب إلى أن طيبة نفسها بدأت تكبر، وقد يفوتها قطار الزواج، ولكن الأم ألقت عليه محاضرة عن النصيب، وأن الله إذا أراد سيأتي الخاطب المناسب في دقيقة واحدة.

لم تعرف طيبة أبدا كيف يمكن أن يأتي خاطب في دقيقة لفتاة على أبواب العنوسة، ليست جميلة، وليس لها سند من عطف الأم، وكل زادها في الحياة ابتسامة الوجه الطيب لأب مشغول بتجارته.. أو هارب من قسوة زوجته.. يحاول دائماً أن يقلل من فرص اللقاء معها، لأن كل لقاء ينتهي إلى صدام..

هكذا بدأ سؤال جديد يعترض حلقها، وينشر الضباب أمام عينيها.. كيف، ولماذا تزوج أبوها من أمها؟ وكيف، ولماذا يظل بعيداً عن حياة البيت ويتركها وحيدة، مكتفيا بهذا التشجيع الرمزي، الذي لا يحل مشاكلها الأساسية؟

في أزمة من أزماتها النفسية اعتقدت أن أمها تراهن على أمر خطير.. أن يموت هذا الأب، وهو أكبر منها سنا، ويبذل مجهوداً كبيرا في تثمير أمواله، وأن ترث هي شركاته وعماراته، وتظل تتحكم في هذه البنت«الخايبة» التي إذا تزوجت ستجد من يدافع عنها، ويطالب بحقوقها وربما يقف إلى جانب زوجها فيتقوى به.

حين انتهت إلى هذا الاعتقادْ كرهت أمها كرهًا عميقًا، وتعاطفت مع أبيها واعتقدت أنه ضحية، وأنه إذا مات سيكون هذا بسبب كراهية هذه الأم له، ولها، وهنا تمنت أن يريحها الله من هذه الأم، فقد يأتي الخاطب ويريح أباها منها، فقد ينصلح حاله، ويشعر بها أكثر فيبذل جهودًا يتجاوز مداعباته العابرة لفتاته الوحيدة، التي لا يبددها غير وجود زوج.. وأطفال، قبل فوات الأوان.

قبل الحادث بعدة أيام، وكانت في الصالة تقلب صفحات مجلة قديمة، رأت أن تطل على غرفة أمها، فرأت في جانب منها ما يشبه حقيبة سفر صغيرة..

دفعها الملل، والفراغ، والشعور بالحصار أن تفتح.. كانت المفاجأة أن وجدت في الحقيبة قطعة واحدة من ثيابها الداخلية، قميصا من قمصانها.. قمصان طيبة، عرفته لأن حجمه لا يناسب الأم وعلامته هي التي تحرص عليها، ولونه هي التي اختارته!! تركته على حاله، لم تفاتح أمها في الأمر.

صباح اليوم التالي على مائدة الإفطار قال الأب لطيبة:

- سأذهب أنا والوالدة إلى موعد يستغرق طوال اليوم تقريبًا..

عندما نزلا لركوب السيارة كانت الحقيبة إياها في يد والدها.

هربت بعينيها عن ملاحقة الحقيبة.

ابتسمت الأم في وجهها إحدى ابتساماتها النادرة..

وقال الأب :

- أشوفك بخير يا فتاتي الوحيدة . .

دل حادث السيارة على أنهما كانا في قرية بدوية على حدود قرية مجاورة .

ذكر السائق الذي نجا بجراح مهلكة أنهما قصدا عرافا تداول الناس ذكر أعماله المؤثرة ، وأنه لا يعرف ما جرى بينهما وبينه ، ولم يجد المحقق في السيارة غير جثتين . . وحقيبة سفر . . فارغة .

تنهدت بحزن :

- هل يحاسبني الله على أمنية لم ينطق بها اللسان ؟ .

اختلجت شفتاها بأمل :

- هل استفاد العراف من القميص ؟ وهل يمكن أن تنتهي يوما حالة الفتاة الوحيدة ؟ !

همست بعطف وحسرة :

يرحمهما الله ويرحمني . .

كان تراب السيجارة قد تطاير ، ولم يبق غير الفلتر في الطفاية ، يحوس في جوانبها بفعل النسمة الهابة ، أما أوراق الورد فكانت تتطاير بين أركان الغرفة الواسعة ●

أوجاع امرأة لا تهدأ

«الله يلعن إبليس»

شبه فاقدة الوعي كانت، بلعت ريقها بصعوبة، فوجئت أنها وحيدة في غرفتها بالفندق.. المصباح الساهر الذي تركته مضاء في الحمام ليبدد خوفها كما هو، والمجلة التي ألقتها مفتوحة على السرير الخالي بجوارها كما هي، والكأس الفارغ على الطاولة على الجانب الآخر لازالت به بقايا قوالب مكعبات الثلج عائمة في عصيرها... لم تنم غير دقائق، ربما لم تنم على الإطلاق، فمتى هبط الكابوس على قلبها، وساقها في موكب من الشياطين لتسبح عارية تماما في بحيرة تجمعت من نفايات زيت السيارات فيها كل كآبة العالم؟

حاولت النهوض، لم تسعفها ساقاها، تربعت في مكانها، بالريموت اشتغل التلفزيون المثبت في الجدار المقابل.. ألغت الصوت، الضوضاء في داخلها تكفي.. الصورة على الشاشة تكسر فظاعة الوحدة في بلد ليس لها أية معرفة به.. تسلل شيء من الندم يزاحم الخوف في قلبها.. هل تسرعت.. هل أخطأت؟ ولكن ماذا تفعل ورغباتها أقوى منها؟! رغباتها بركان يقذف بالحديد المصهور، والتراب المذاب، والماء الغالي، والغازات القاتلة..

يوما ما حدثتها ابنتها بهذه الدرجة من الفظاعة.

حاولت أن تضع يدها على فم الفتاة لتمنعها من الاستمرار..

الفـتـاة التي دخلت في وقـار الحـجـاب وهي في العـشـرين، رفضت السكوت.. أزاحت يد أمها بقسوة.. هبّت فيها:

-- أنا أخلّص ضميري.. أنت أمي، لن أقول لك «أف»، أمرنا الله بإحسـان معاملة الأب والأم الكفار.. ما أقوله لك ليس فظاعة.. هو صراحة، واجب المؤمن في نصح من يحبه.. أنت يأمي بركان قاتل.. دخان ونار وسموم.. حرام أن تلقي بنفسك في جهنم الشهوات وأنت جميلة.. أجمل مني أنا ابنة العشرين، وأنت فوق الخمسين.. لماذا لا يكون جمالك مصدر سعادة للشرفاء الطيبين؟! لماذا تبعثرينه على رجال سمعتهم لا تشرف، ولا يسمح لهم الشرفاء بالاقتراب من بيوتهم، وفي بيتنا يجدون التسلية والشرب، والرقص والمجون المباح وغير المباح.. والابتسامة الغاوية والضحكة الفالتة.. والتحسس الشهواني؟.

كـانت - ذلك المساء -- تتمنى بأن تقول لابنتها اصمتي، الزمي حدّ الأدب.. هذا كذب، خصوم أمك الذين يغارون من جمالها، ومن ثروتها، من كتبها الكثيرة التي يقبل الناس على شرائها - بعد أن تشتريها هي من كتّابها - والحديث عنها في الصحف وهي سيدة الصالون التي لا تباري،... هؤلاء الناس من النساء والرجال هم الذين ينشرون هذه الأقاويل!! لكنها لم تستطع، كيف وكل شيء يجري في الفيلا وبين جدرانها؟! وأولادها ينزوون فشلاً وانكساراً خلف الأبواب عندما تفتح زجاجات الخمر.

إنها لا تعرف أي شيطان يدفعها إلى أن تجد لذتها في الإعلان عن رغباتها.. ليست رغبة في الشجاعة والحرية، وليست مسألة صدق مع النفس كما فعلن في مجالسها الليلية.. المسألة داء لا تعرف له سببا.. ولأنها لا تعرف سببه لم تجد له دواء..

استطاعت أن تنهض.. جلست أمام المرآة.. «آه» وتنهدت.. نفخت السيجارة، ارتطم الدخان بسطح المرآة وارتد إلى وجهها، استعادته بأنفاسها وهي سعيدة بمنظر وجهها الغارق في ضباب الدخان.. يقولون إن هذا البلد مثل كل بلاد آسيا.. المخدر متوفر.. ليتها تجد قطعة بأية طريقة، ستكون حتما أرحم وأكثر سعادة من الحبوب المنومة التي أدمنتها صباحا ومساء.. كم يكون هذا الدخان ساحرا لو كان ممزوجا بالكيف؟! لا تعرف ما الذي جعلها تسكت على هجوم ابنتها المحببة.. شرحت كل شيء لطبيب الأمراض العصبية.

قال لها:

- طبيعي أن في داخلك إحساسا بالذنب.. وعندك حلم بالبراءة فأنت تعتقدين أن ابنتك على حق في كل ما تقول!!

رفضت هذا الكلام.. قالت له:

- أنا متمسكة بكل ما أفعل، ومن لا يوافق يشرب من البحر.. لن أبيع راحتي براحة أحد.. أما سكوتي على البنت.. أعتقد سببه أن ولدي الأصغر منها أطلق لحيته وبدأ يتردد على المساجد.. في الأول سكتنا وقلنا.. نأخذ فيه ثوابا وندخل به الجنة.. كان في حاله.. وكنت في حالي.. بعد شهور تركني في

صمت، قاطع الفيلا والشارع والمنطقة ودخل السكن الجامعي، ورفض أن يتناول من يدي أي مصروف، تصور يادكتور.. حفيد المليونير عبدالجبار الطفران، وابن لبنى الطفران ابن الحسب والنسب.. يشتغل بالصيف في مشروع مقاومة الفئران ليوفر تكاليف الدراسة؟.. هذه فضيحة.. وأعتقد أنني سكت على كلام ابنتي حتى لا تلحق بأخيها وأنكشف أمام الناس.. أستطيع الآن أن أقول لمن يسألني عنه أنه يقلد شباب أمريكا الأغبياء في الاعتماد على النفس، أو أنه معتوه مثل أبيه.. أو أمي.. بالوراثة.. أو.. أو..

ولكن، لو البنت فعلت مثله ماذا أقول؟!

لسعت جمرة السيجارة إصبعيها، ألقتها فوق السجادة.. انتفضت قبل أن تترك النار أثرا في الأرضية.. فقط حين وقفت أدركت أنها لاتزال عارية تماما. تعودت أن تنام عارية، وعدته أن تنام في حضنه في الليلة المتفق عليها عارية، ولكن.. لماذا هذه الليلة وهي غريبة.. في فندق، وليس عندها ما يستدعي؟ حكم العادة..

تطلعت إلى جسدها الأبيض الصافي.. لون الشفق لايزال يغلف بعضه.. ويداري العروق الزرقاء النافرة في بعض المناطق المكشوفة.. الرجال يسيل لعابهم حين يرونها، وهو بالذات أخذ يطاردها بالتليفون أكثر من شهر ليفوز بموعد، التقطت نظرته الشرهة منذ اقترب منها في الجمعية التعاونية وشم رائحتها.. آه فهم كلهم مثله مع اختلاف الطريقة.. هي تراوغه.. كانت

تسخر من الوجه الذي يظهر به في الصحف، وفي التلفزيون كرجل أخلاقي وداعية فضيلة.. لم تفكر في فضحه.. بالعكس.. استجابت له بقسم طاهر على حلف مدنس أنها تفضح نفسها معه، وهي ليست ساذجة حتى تحطم الزورق الأخير في صعودها وهي تقترب من الستين، ولكنها كانت تبحث عن شفاء نفسها.. هي الآن أفضل منه.. لها وجه واحد، حتى ولو كان الناس لا يرضون عن سلوكياتها فإنهم لا يجسرون على فتح الموضوع معها صراحة.. بالعكس.. جمالها، وثروتها.. وسهراتها الليلية تجعل الكل حريصاً على التقرب إليها، وتحويل قبائحها إلى فضائل، أما هو.. فله وجهان.. ربما له وجوه أخرى ستعرفها.. إنه حريص، رفض الالتقاء بها داخل الحدود، هكذا قال، كذلك استبعد كل البلاد ذات الصلة، ولو محتملة، مناطق آسيا جميلة هكذا قال - جوّها الآن دافئ، ربيع، والغابات ستنعش ميولك المتوحشة، وهناك موعدنا...

جمعت رماد السيجارة المطفأة من فوق السجادة، في قيامها.

كان صدرها الممتلئ - بفعل عملية التجميل - لايزال يحتفظ باستقلال كل من جناحيه، كأنهما حمامتان متعلقتان بعنقها، منقاراهما الأحمران يرسلان اللهب ويغريان بالمداعبة!!

ليس للعري عندها بداية...

الأب المزواج الذي ملأ جيوبه من عرق الكادحين، ملأ أيضاً قصره ذي الأسوار العالية بالنساء، العربية السمراء، والشامية البيضاء، والكردية العملاقة، والزنجية في لون الأبنوس..

بالحلال يتزوجهن، وحسب الشرع يطلق، ويدفع مؤخر الصداق ويستبدل.. والقصر ذو الأسوار ممتلئ بأعداد.. يقولون إنهم إخوة وأخوات، لكن كل واحد يأخذ أوامره من أمه، وهي أوامر مشحونة بلعنة أبناء الضرائر.. هي.. من صغرها.. بيضاء، حمراء.. شفافة.. كأنها مصنوعة من الزجاج.. ومن قريب تتحول إلى رخام، داخلها خراب، وخارجها ناعم يلمع.. كانت تلك هي طريقتها في الدفاع عن نفسها.. تتجمد في مكانها.. وتلزم الصمت.. وفي الخفاء تضرب كالحرباء..

سحبت صمتها معها إلى المدرسة، فشهدت المعلمات لها بالجمال والغباء، ولم تفلح معها الدروس الخصوصية.. حتى فصلت في نهاية المرحلة الابتدائية لبلادتها وتباهيها بمال أبيها واستفزاز بنات الفقراء، ولم تفلح هدايا عبدالجبار الطفران في أن تفتح لها طريق الطالبة المثالية.. إلى أن حدث يومًا ما لم تستطع أن تنساه..

كان ابن العبدة - هكذا كانت تُدعى الزوجة السوداء، ويُدعى ابنها - يتظاهر بأنه يرتب كتبه قريبًا من غرفتها.. وكانت هي نائمة.. سبق أن لاحظت أن عينه عليها، ولكن أمها قالت لها إن ابن العبدة هو أخوك ولا يتجاسر عليك.. في ذلك اليوم القائظ، والناس كلهم أخمدهم الحر، ولم تنفع أجهزة التكييف في كسر دبابيس جهنم الساخنة.. كانت مستلقية على وجهها في سريرها.. أحست باليد التي تتحسس ظهرها.. شعرت بالراحة وانتظرت أن تتمدد الأم إلى جوارها، نزلت

الكف الملتهبة إلى ردفيها . . أزاحت ثيابها . .

قبل أن تحدد ما يحدث ، وما يجب أن تفعل كان قد أزاح ثيابه هو أيضًا والتصق بردفيها . . فزعت ، انتشرت ، نهضت على ركبتها ، عرفته من ثيابه المتهدلة ، حاولت أن تصرخ ، وضع يده على فمها بقوة ، قال لها :

إن الفضيحة ستكون شاملة ، وإن عبدالجبار سيجلدها كما سيجلده . .

ارتعش جسدها رعبا . .

قبل أن تحدد موقفها كان قد بلغ شهوته ، وأحست بشيء يسيل على ردفها ويترك أثرا على السرير . . جمعت بصقتها ، وقبل أن تطلق حنجرتها بالصراخ كان اختفى ! !

لم يعد عندها دليل على ما جرى ، غير تلوثها ، فهل تستطيع أن تقدم هذا الدليل إلى والدها ، أو . . حتى . . والدتها ؟

إنها الآن تتذكر هذه الحادثة البعيدة ، وتتذكر ما جرى بعدها . . لم تعد تلتزم الصمت ، ولم تعد هادئة مصنوعة من الرخام ، قصرت جميع فساتينها ، قصت جميع أكمامها ، وسعت أطواق ملابسها بحيث يظهر مجمع النهدين ويظهر «الخال» البارز المغري الذي يجتذب إليهما الأنظار . . تغير الزمن ، ولم تتغير عادة التعري .

بعد ذلك بسنين كانت مشاركة في جلسة في إحدى مزارع الفنطاس ، كان المشارك الوحيد في الجلسة من جيل أبيها ، وفي مثل ثروته ، وكان الأب نفسه قد مات ، واكتسبت المزيد من

عـريهـا، وكـان زوجـهـا الأول لحق بـه وترك لهـا الولد والبنـت، ومـزيداً من حـرية لـم تنقص بـوجـوده.. أمـا الجنس اللطيـف في الجلسـة الخاصـة فكانت واحـدة على شاكلتـهـا.. لزوم التسلية والترفيه.

اقتـرح المضيف العـملاق أن تنزلا إلى حـمام السبـاحة الذي تحميه أشجار المزرعة من عيون المتطفلين، اعتذرت الأخرى بأن ليس معها لباس البحر.. لم تتردد هي في قبول الدعوة.. لأنها ليست في حاجة إلى لباس البحر.. ومع أن السيد صاحب المزرعة اتخذ الاحتياطات الواجبة، وجاء باللازم من خزانة في غرفته الخاصة فإنها كانت الوحيدة التي نزلت بقطعة وحيدة من ثوبها الداخلي.. حتى تنصعق الأخرى وتغتاظ.

للآن لم تنس حلاوة ذاك اليوم، وهو وحده الذي يخفف من مرارة اليوم الآخر الذي فوجئت فيه بابن العبدة جاثما عليها.. إنها تحاول أن تتخلص من هذه الذكريات كلها.. سواء كانت أليمة أو لذيذة.. إنها تستفيد منها في الحكايات التي تعدلها وتتورط عندما تسأل عن هذه الحكايات ولا تعرف الإجابة أو الرد.. وقد شجعها طبيبها النفسي وقال لها إن هذه الكتابة تخلصها من عقدها المكبوتة وتحافظ على صفاء شكلها وراحتها..

وفعلاً كانت كلما توسعت في حكاياتها الفاضحة تشعر بأنها مرتاحة أكثر، وأنها في صحتها أحسن.

ولما دخلت في موضوع الزواج الثاني وكانت قد فشلت في

رمي شباكها على فالح الذي أخذ منها ما أخذ، وكان الثاني رشيد زوج صديقتها التي احتوتها في أزماتها، ولما عاتبتها على خطف زوجها هددتها بالترحيل من البلد كما فعلت مع رشيد بعد أن أخذت منه ما أرادت وانتقلت إلى بلد آخر.

كان رشيد أبو ظهر يعرف كل أسرار حياتها.. حكت له ما أمكن، وكيف أنها النموذج للمرأة المنطلقة بلا حدود، لا يعنيها شيء سوى علاقات المتعة، وكيف أنها أغرقت نفسها في هذا النوع من العلاقات بغير حدود سعياً وراء مكاسب إعلانية لحظية زائلة، وكيف أن الذين احتواهم قصرها كانوا يرددون حكايات لياليها في الخارج وينشرونها على الملأ، رغم ما كانت تغدقه عليهم وعلى الأضواء بما كانت تملك، وكيف أنها في انتقالها من زوج إلى زوج، ورفيق إلى رفيق، كانت تعيش مضطربة تتنازعها عوامل الغيرة والحقد على أمها بسبب كثرة الأزواج الذين دخلوا حياتها، وبسبب حياتها المستهترة، وتأثرها بحياة أمها والسير على منوالها، وعدم إحساسها بالسعادة برغم إغراقها في مظاهر الثراء في البيت الواسع، وشهرة الأم الواسعة حتى إنها لا تتردد في تندرها حول أزواج أمها وعشاقها.

وحكت له كيف أنها كانت باحثة عن المغامرة والحب والجنس والأضواء وكان هذا يكلفها مبالغ باهظة، وكيف أنها لا تهفو إلا للمتزوجين، والسعداء منهم على الأخص، وحياكتها لخيوط العنكبوت حتى تقبض على ما تريد بطرائقها المعسولة، ومهارة تمتزج في مراحل بالعنف والقوة والتهديد إذا ما رأت أن الصيد

سيفلت من يدها، وكيف أنها مع اليمين يمين، ومع اليسار يسار، وتسير مع كل الأهواء، وحكت له كيف أنها لم تتوان حتى في أن تعشق زوج أختها وتمارس عليهما الإرهاب والتسلط حتى وصل بها الأمر أن سجلت لهما لقاء غرامياً، وشهرت بهما في أوساط العائلة، وكيف أن الرجال الذين عبروا حياتها كانوا يخجلون من الظهور معها علانية في الأماكن العامة لما يحيطها من كلام، ولسلوكها الجريء، وضربها بكل المواضعات نتيجة صخبها الداخلي وغليانها الدائم، فكانت تحرج مرافقها بالصوت العالي والزجر والصراخ، وانكشاف جهالتها ومحدودية تعليمها ومحاولاتها التخلص من صورتها هذه عند الآخرين دون جدوى، رغم كل محاولات السيطرة والقبض على الظروف. وكيف أنها لم تستجب لنصيحة الأخ والأخت حتى وصل الأمر بهم لمقاطعتها والتبرّؤ منها، وكيف أنها ترى قلقهم عليها بالشيء المقزز ووصفهم بأوصاف بذيئة وتباهيها بتحديهم، وحتى حكت له عن حروبها الشعواء التي تشنها بالإشاعات والأكاذيب عن منافساتها وإسقاط ما بها عليهن بقصد إقفال الأبواب عنهن كي لا يشهدن على ممارساتها وفضائحها.

سمع رشيد كل حكاياتها وبرغم ما كانت تغدقه عليه من أموال وملابس ورحلات، ولكنه ربط بين هذا وذاك.. وتعامل معها بكل حرية.. تعامل مع جسدها على أنه ملعب.. ليس للعب فيه قواعد ولا حدود.. عرف كيف يقنعها بأن تأليف

الحكايات يحتاج منها إلى هذه الممارسات بكل أنواعها، لكي تمدها بالشعور، والخبرة.. والجرأة.. فكان يلعب بها من كل الزوايا.. ويقوم هو بكتابة حكاياته معها لها..

كانت في البداية تشعر بالغرابة بعض الشيء، لكنها وجدت نفسها القديمة التي تعودتها في هذا النشاط.. تعاملت مع جسمه كما يتعامل مع جسدها.. لا مكان للممنوع، ولا حدود للاكتشاف.. واستمر اللعب بدون قواعد، وعاشت في حالة من الطيران الدائم بين العواصم، والفنادق، والسراير، والأيدي.. حتى أدار لها ظهره بعد أن حرمته من رؤية ابنه الصغير وهو يحتضر.. وفقده دون أن يراه وبدلاً من أن تعزيه وتواسي أحزانه اتهمته بالمحاكم بابتلاع ثروتها، وأنه بعد أن اطمأن على مستقبله.. تركها تعاني كوابيس الزمان، وفكرت أن تشهر به وبحكاياته معها، ولكنها حين فتحت من المخزن نافذة واحدة انطلقت روائح وفضائح وأخذ الناس يلوكون سيرتها ويذكرون الماضي والآتي.. بل بدأت في افتعال الأزمات حولها، وساعدها بعض عشاقها كي تشغل الناس عن هذه الروائح والفضائح.

وجاءها ابن العبدة:

- أنا أخوك، وهذه الفضائح تسيء لعبد الجبار في قبره..

صرخت في وجهه:

-- اخرج يا كلب.. نسيت ما فعلت؟ تريد أن أكشف لك لترى ما تركت على جسدي..

مدهوشاً:

- جسدك؟ أعوذ بالله من إبليس.. بنت الكردية ماذا تخرف؟

نبحت في وجهه:

- نسيت يا ابن العبدة؟ أظافرك مغروسة في لحمي وأنت تكتم أنفاسي حتى لا أفضحك..

وارب نظرته كأنه يستعد ليغرس خنجرا في القلب:

- تفضحينني؟ لماذا تفضحينني أنا كنت ولدا صغيرا.. شيطانًا.

شيطنتي كانت صيد العصافير ولعبة صاده ما صاده.. لكن نظراتك المخمورة التي كانت تتبعني أينما ذهبت هي التي شجعتني.. أمك نفسها كانت تعرف.. وسكتت..

- اصمت.. لا تذكر أمي، وكفاك أمك.. العبدة..

- عبدة حجت بيت الله وما تكلمت على أحد.. لكن أنت.. وأمك.. ما عرفتم حتى قراءة الفاتحة.. مع ذلك أترحم عليها، كان بودها أن تضبطني معك، يمكن عبدالجبار يطردني ويحرمني من الميراث.

عادت تصرخ فيه:

- أنت أخ؟ أنت إبليس ذاته.. إبليس من عيالك يا عبد ياملعون يابن العبدة.

نهضت إلى جهاز التكييف، زادت في درجة التبريد، ما جدوى أن تتذكر هذا الآن، وبعد سنين وسنين؟! عندها من الأحزان ما يكفي.. تشرب الأصفر والأحمر، وتدمن المهدئات،

وتستعين بالمخدر إذا تيسر، ولا تحصل على نوم عميق..
الكوابيس تطاردها، وعقدها تحاصرها.. تمنت أن تتزوج ولو صعلوكًا من أصحاب الدشاديش.. لماذا لم يشفع لها جمالها؟ كلهم يريدون شفتيها، وأجزاء أخرى لم تضنّ بها.. كلهم على استعداد للشرب على مائدتها، وطلب الدفء في سريرها..
ولكن دون الوصول إلى وثيقة زواج.. رماها أبوها في ريعان شبابها لأبو لغد متحاشيًا نزقها المبكر، ومن أبو لغد إلى أبو ظهر، والآن تعيش كعصفورة على غصن شجرة.. تصوصو ليلا ونهارًا.. لعل أحدًا يعطف عليها.. هنا أو هناك.

ولكن من يعطف عليها وقد وصلت أخبار مؤامراتها لكل مكان وعرف الكل عن هرولتها والتمسح للكبار وادعائها بالتقدمية والرفض.. من يعطف عليها وقد بانت ضحالتها وجهلها وقد شبعت الناس من عكاكيزها في استلاب الآخرين..
بالرقص والحفلات وتسجيل مواقفهم حتى إذا ما رفضوا لها مطلبًا أخرجت ما تمسكه عليهم.

انتهى الفيلم الأجنبي، وافترش العلم الشاشة، وابتسمت المذيعة الصفراء بأسنانها البيضاء، وأغلقت الجهاز، واستبشرت أن اليوم الجديد قد أقبل، وأنه سيصل في طائرة الصباح..

فكرت أن تذهب لاستقباله في المطار، تراجعت.. فكرت..
يجب أن تظهر بكل دلالها المعهود وأن تريه بأنها لاتزال الجميلة، الثرية.

حين رأته ينزل من سيارة الأجرة أمام الفندق أسرعت إلى

السرير، تجردت، وتغطت بملاءة رقيقة وأغمضت عينيها.. إنه يعرف الغرفة، هو الذي سيدخل.. عدّت الدقائق والثواني.. وضع يده على المقبض وأدار المفتاح المشفر..

رغم خلو الغرفة من أحد غيرها همس:

- صباح الخير..

رأت أن التمادي في النوم يفسد المنظر، نهضت قليلا واستندت إلى ظهر السرير.. صدرها العاري يتحدّي.. سرتها المستديرة تبدو من تحت الغطاء الشفاف المشدود على أسفلها.. تراخت قليلاً..

تصنعت الصوت الهامس النعسان:

– اشتقت إليك.

– وأنا أكثر..

– تعال هنا.. خفف عن نفسك واسترح بجواري..

جلس على الكرسي المقابل، وقال بصوت هامس واثق:

– اعلمي أنني لا أقبل الحرام..

– الحب ليس حراما

– ليس هذا مقصدي.

– وما هو مقصدك.

– نتزوج.

– أنت جاد؟

– جداً.. أيوجد هنا مأذون يعقد قراننا؟! نسأل إدارة الفندق، لابد أنها تعرف مأذونًا ما..

ابتسم وهو يرمق سرتها ولعابه يكاد يسيل:

- ما حاجتنا إلى مأذون؟

بلعت ريقها، انطفأ شيء من ابتسامتها.. ركز عينيه على عينيها:

قولي يا لبنى: زوجتك نفسي.. وينتهي الأمر!!

صمت ثقيل..

عبد الجبار، في لحظة، عاد إلى الحياة، إنهما متشابهان.. أبوها قضى عمره يجمع الأموال بالمكر والخديعة وتضليل البسطاء ،ووضع اليد على الصحراء الضائعة التي ليس لها صاحب، وتسويرها وتقسيمها..

كل الناس يعرف هذا، ويعرف أن له في كل بلد خليلة.. ولكنه يبني مسجدا، وفي مقابل المسجد يبني كنيسة، فمن يتكلم، ومن ينتقد؟! يالها من ذكرى!

عاير أمها يوما وقال لها:

إن كنت زوجتي حقا.. أين وثيقة زواجك؟.

- إنها تذكر هذا الموقف الأسود. الأم نكست رأسها وابتسمت قهرا.. هي أيضا تبتسم قهرا على طريقة أمها..

قالت الأم:

هذه البنت التي تلعب بعروستها ولا تعرف معنى ما تقول.. ابنتك.. والحمد لله.. لها شهادة ميلاد..

كانت لبنى تلعب بعروستها أمام مرآة خزانة أمها، حيث يسرها أن تشاهد نفسها في عناق ومداعبة مع العروس المصنوعة

من البلاستيك بحجم طفلة حقيقية.. أدركت الكلام ولم تعرف معناه.. في المستقبل كانت شديدة التمسك بشهادة ميلادها، وكانت تقرأ بإعجاب وشغف خانة اسم الأب: عبدالجبار الطفران، اسم الأم:.... المولود....

عاد يكرر:

- قولي يا لبنى: زوجتك نفسي؟! قولي....

قبل أن تكمل الكلمة كان قد دفعها على وجهها..

وامتطى ظهرها... كان أشد ما يضايقها لحيته المنفوشة وهي تحتك بكتفيها وقفاها ●

رنيــن جسد

إنها تعرف أصواتهم.

تكتشف الرجفة وراء الاندفاع..

عندما جاء صوته عبر الهاتف، من أول «ألو» تأكدت أنه ليس منهم.. إنه يقصدها هي بالذات.

ليس واحدا من المتطفلين.. صغار الموظفين وشباب الدواوين والسكارى الذين يتسلون بطلب «أي رقم» بقصد التسلية، لعل وعسى!!

تعرف اندفاعهم:

أحلام موجودة؟

أو:

هذا بيت سالم السامر؟

أو:

- خالتي موجودة؟

كانت قد تعودت هذا الصنف من المكالمات التي تأتي عند منتصف الليل عادة، وكانت لا تكلف نفسها بالرّد. تضع السماعة بعنف وكأنها تضرب الباب في وجه ضيف ثقيل.

حين جاء صوته لم يتصنّع. قال لها ببساطة:

- أريد أن أتحدث معك!

- هكذا ببساطة؟

- ليس أجمل من البساطة.

حاولت أن تعرف عمره، ومستواه الثقافي، ثم أسباب هذه الرغبة التي تحركت عند منتصف الليل.

قالت:

- لماذا أنا بالذات؟ هل تعرفني؟

بصوت حاد:

- ياليت!! هذا ما أحاول أن أفعله..

- والسبب؟!

- لم أفكر في السبب.. شعرت أنني مندفع نحوك بجاذبية غريبة..

أحسست بالرغبة في استمرار الحوار، حتى ولو من قبيل التسلية..

قالت:

- اسمع يا.. لم أعرف اسمك..

نصف ضحكة من طرف أنفه. نقل السماعة إلى أذنه الأخرى. سحب نفسا من السيجارة، أطلق نفسه الدافئ عبر الهاتف كأنه يصبّ في أذنها:

- شوفي. اسمي ليس مشكلة..

صمت - أخذ رشفة من سائل ما أمامه.. ساخن أو بارد لا تدري.. عاد يكمل:

- المهم أنت.. أنا أريدك..

شهقت:

- بهذه السهولة؟! عن إذنك.. سأغلق الخط.

سارع معتذراً:

- لا، لا.. أرجوك.. هذه الليلة بالذات أنا وحيد، وحزين.. إنني أفكر.. في.. في الانتحار!!

ضحكت ساخرة:

- الانتحار؟! مرة واحدة؟ يالك من روميو تعبان.

قاطعها:

- لا، لا.. أرجوك.. هذا الكلام لا يناسب ما أكنه لك من حب..

- حب، وأنا لا أعرفك.. حب بدون أسباب..

قلت لك:

- الجاذبية.

- حتى الجاذبية لها أسباب..

- معك حق.. بصراحة.. رأيتك على شاشة فضائية التلفزيون أمس.. لم أستطع النوم.

متهكمة:

- مسكين..

- فعلاً مسكين.. أربع وعشرون ساعة.. اسمعيني جيداً.. أنت لست جميلة..

- شكراً لذوقك الرفيع..

- لكنك امرأة بارعة، وصلت إلى قلبي في أقل من خمس دقائق!!

مستمرة في التهكّم:

- يا سلام! لابد أن قلبك يسكن في السرداب.. ثلاث درجات لتحت.. ونصل..

- الله يسامحك.. دائمًا يقترن الحب بالقسوة..

قهقهت عابثة:

- ماشا الله.. كانت جاذبية. في دقيقة أصبحت حبا.. وربما بعد دقيقة أخرى يتحول الحب إلى عشق..

- هنا مربط الفرس..

- مربط الفرس.. الحمار.. لا يعنيني ماتقوله.. أنت تجاوزت وأنا سأغلق التليفون.

- أنا عاشق فعلا، ولن تستطيعي منعي من عشقك.. أنا عاشق صوتك.. فقط صوتك، هل يمكن أن تسمحي لي بأن أسمع صوتك..

- فقط صوتي؟!

- فقط صوتك؟!

- حسنا. أنت سمعتني في التلفزيون، كما تقول..

- إنها الحقيقة والله العظيم..

- وأيضًا. صدقتك..

- الحمد لله..

- اسمعني غدًا في الإذاعة..

قاطعها صارخًا، كان يرتشف من جديد فقطع الرشفة:

- لا، لا.. لا أريد الإذاعة..

- لماذا؟ الإذاعة أخت التلفزيون. أم أنك على خلاف مع مدير الإذاعة؟

- بالعكس. إنه مثقف ممتاز..

- حسنا.. زعلان من الموجة القصيرة؟

بالعكس.. القصيرة أحسن من الطويلة..

لماذا؟!

- لأن القصيرة يمكن أن أحتويها جيداً بين ذراعيّ، وأن أمتلكها جيدا..

- هذا الكلام عيب. أنت غير طبيعي!

- هل التفاح ممنوع؟

قالت بجدية:

- لا طبعا.. لا التفاح، ولا العنب، ولا حتى السفرجل..

قال:

- ما علينا من السفرجل.. آه من التفاح.. قولي لي يا مدام!!

ارتجفت يدها على السماعة.. قطبت تصنّعت الغضب.. فكرت:

- لماذا تقول يا مدام.. ربما آنسة..

قال ضاحكًا:

-- حتى الآنسة مدام؟!

-- يا سلام.. كيف؟ أود أن أعرف..

– بالخبرة.. هذه مسألة معروفة..

قالت، وقد شعرت أنه يسحبها إلى بعيد:

- نعود إلى الصوت.. لماذا لا تريد أن تسمعني في الإذاعة؟.

قال بتأكيد:

- أريد أن أسمعك على الهاتف.. أن يكون صوتك في أذني.. لوحدي.. هل يشكّل هذا أي خطر عليك؟ فكّرت في وضعها.. كل الاحتمالات. ألا يجوز أن يكون شخصًا تعرفه يغيّر صوته ويريد أن يسخر منها؟! أو أحد المنافسين في العمل ويريد تسجيل موقف؟ أو واحداً من أقاربها.. يختبرها؟! مصيبة..

جمعت شجاعتها.. تجعدت جبهتها.. زمّت شفتيها:

- اسمع.. يا..

- ابــ..

- لا أريد أن أعرف اسمك.. هذا شيء يعنيك..

- هل أغضبتك؟!

- ليس بيني وبينك ما يدعو للغضب..

- إذًا.. نتكلم، وأقسم لك أنني لن أتجاوز الكلام.. وسأحفظ السر..

- سر؟! هل جننت.. أي سر بيني وبينك؟!

- هذا الحوار الليلي.. خاص بنا.. ربما يفتح لك مجالاً للكلام وربما يساعدني على الحياة..

- الحياة!!

- قلت لك إنني وحيد وحزين.. وشفائي في أن أسمع صوتك.. هل هذا كثير؟ هل هو حرام؟

- لا أعرف، ولكن.. لماذا؟

- قلت لك إنه شفائي من دائي.. أريد أن أتكلم معك..

- تكلم!!

- إذن.. أرجوك.. صافحيني.. أريد أن تصافحيني في التليفون..

فكرت، لابد أنه مختل عصبيًا.. يمكنني أن أسايره دون أن أسمح له بالعبث بي.. يمكن أيضًا أن يكون خبيثًا يتلاعب بعواطفي..

قالت:

- حسنًا.. سلمت عليك..

(بعد لحظة صمت)

- الله.. يدك ناعمة جدًا..

- عيب.. اترك يدي..

قال بإصرار، كأنه يقبض على معصمها:

- أرجوك.. اتركيني أسعد بلمسها.. دقيقة واحدة، ممكن!!؟

كيف يجرؤ؟! هذه وقاحة وقلة أدب. من أول مكالمة يطلب منها أن تبقى يده قابضة على يدها؟ من يظنها؟

بحدَة، قذفت بالسماعة التي ظلت تتأرجح كأنها جسد مشنوق.

- أف.

أطلقت أنفاسها الحبيسة. من هذا؟ وما الذي يجعلني أقبل

استدراجه للكلام؟ هذه سخافة. وحتى لو كانت في الوقت الضائع.. تظل غير مقبولة.. غير مضمونة.. غير أخلاقية، خاصة وهي لا تعرف من هو، وماذا يريد بالتحديد. المهم أنها تخلصت منه. لن تضع السماعة في مكانها من التليفون حتى لا يعود إلى طلبها. هي تعرف هذا النوع اللحوح.. اللزج.. يكلمها بعد منتصف الليل. يقول:

- صوتك الدافئ.. (هل قال الدافئ أم الحنون؟) ثم.. اسمحي لي أن أحتفظ بيدك دقيقة.. والله أعلم بماذا يريد أن يحتفظ بعد ذلك.

كانت السماعة لاتزال تتحرك حركة بندولية.. وصوته يأتي عبرها:

- ألو!! ألو!! أرجوك يامدام..

(ابتسمت.. تذكرت.. هل هو وقح أم جريء. قالت له ربما كنت آنسة.. فقال: قلنا حتى الآنسة.. مدام.. بالخبرة.. خبرة في ماذا يا قليل الحياء؟ لن أرد عليك)

واستمر النداء في لهجة الاستغاثة:

- خلاص. تبت.. الرحمة.. يا..

خشيت أن تضعف، ولو بدافع حب الاستطلاع. قررت أن تبتعد.. لابد أن صوت إيقاع نعلها كان مسموعا عنده، لأنه غيّر لهجته، وضراعته زادت:

- لا، لا تذهبي.. أستحلفك بالله.. خلاص.. كلمة واحدة أريد أن أفهم..

لم تهتم به، مضت خطواتها تتراقص وهي سعيدة جداً بإلحاحه، بذلّه، بإصراره..

- (خلّيه يموت، ما عليّ منه)

ذهبت، إلى آخر الصالة، تحركت على مهل، فتحت الثلاجة وتناولت زجاجة غازية.. شربت الجرعة الأولى وعيناها على السماعة التي توقفت عن الحركة، وتدلت مثل جثة.

قالت في نفسها:

- «تستاهل»

لكن شعوراً آخر كان يغمز في قلبها..

(ماذا لو كان متعلقاً بها بهذه الدرجة؟) ثم.. ما الذي أغضبها؟ إنه مجرد كلام!! كلام يجري في أسلاك أو موجات لا تعرف معناه.. لنفترض أن طفلاً صغيراً نطق بأحسن كلام، أو أفحش كلام.. هل تؤاخذه؟ إنه مجرد أداة تردّد مفردات لا تعرف معناها - هكذا الوضع بالنسبة للتليفون.. طفل ثرثار يقول كلاما لا يعرفه!!.

استراحت قليلا لهذا التفسير، ولكن غضبها تجدد عندما اقتربت عائدة في اتجاه السماعة المشنوقة، كان صوته قد سكت تماما. اعتقدت أنه أغلق الخط. انحنت تلتقط السماعة. وهي تقول ساخرة:

- هه.. كلمة واحدة تريد أن تفهمها؟! فهمتها الآن يا شاطر؟

قبل أن تضع السماعة جاء صوته:

- قسماً بالله ما فهمت. وهذا ظلم..

قالها بمنتهى المسكنة والخضوع.. وأكمل:

- انظري.. الخط مفتوح منذ نصف ساعة.

لفت انتباهها عبارة:

«الخط مفتوح». من أين يتكلم إذن؟

قررت أن تعرف. قالت بلا مبالاة:

- مفتوح.. مغلق.. المكالمات مجانية.. تصوّر نفسك حاتم الطائي.. ثم.. أنا لم أطلب منك الاتصال، ولا أريد أن أتكلم معك..

قال بجدية:

- ولكنك الآن تتكلمين معي!!

ضحكت.. تخلصت من زجاجة الماء الغازية، قبضت جيداً على السماعة. قالت بتهكم:

- من باب الشفقة..

- فقط؟!

- وهل أعرفك ليكون في هذا الحوار أكثر من الشفقة فقط..؟

- إذا وعدتني أن تتمهلي عليّ إلى آخر التعارف سأقول لك من أنا..

ضحكت باستهزاء:

- يا سلام. يا لها من خطة.. ثم.. ما هذا التنازل العظيم أن تشرفني بمعرفة اسمك؟!

صمت..

قالت :

- ما الكلمة الواحدة التي تريد أن تعرفها ؟

- بلا زعل ؟

فكرت قليلا . . ثم قالت :

- حسنا . . بلا زعل . .

قال :

- متى تسمحين لي أن ألمس يدك في الحقيقة . . صمت جديد .

تمالكت . . تحركت الاحتمالات . . هل هو قريب . . زميل ، ماجن متفرغ . . عاشق حقيقي ؟

قالت :

- النجوم أقرب إليك . . أنت بالحتم مجنون . .

قال مقاطعا :

أقر وأعترف . .

لم أسمح لك أن تلمس يدي في التليفون . . فتطمع في لمسها في الحقيقة . .

تنهد ، صوت ولاعة ، وشيء ما يصب في كأس ، أطلق نفسا حبيسا . نقل السماعة إلى يده الأخرى . . :

- اسمعي . . الخيال أقوى من الواقع . بالنسبة لي . . لمسة يدك مفتاح إلى الجنة لا يعرف معناها غيري .

تصنعت العجب والدهشة ، رفعت حاجبيها كأنه يراها ، ظننت فعلا أنه يراها ، ولهذا انتظرت أن يستمر في كلامه . .

قال :

- لماذا لم تردي على كلامي؟

قالت :

- مادمت اعترفت بأنك مجنون.. انتهينا، ماذا نقول عن المجانين؟

- نقول إنه أعقل من العقلاء.. لم تسأليني عن لمسة اليد.

قالت باستهزاء ظاهر، يداري رغبة في الاكتشاف :

- سألتك؟

قال :

وأنا سأجيب. اليد، لماذا فيها خمسة أصابع؟! أجيبي!؟

بصراحة لا أعرف. الطيور لها ثلاثة أصابع. ربما بعض الحيوانات لها أربعة..

فعلا.. لكن الإنسان له خمسة، لأن اليد، بأصابعها الخمسة فيها قدرة على القيام بالحواس الخمس..

اليد تشوف. اليد تسمع..

قاطعته مستهينة :

- يا سلام.. ما هذا العلم الغزير؟؟

استمر بنفس الجدية :

- اليد، تتذوق، اليد تشم..

كررت وراءه :

- تسمع.. وتشم؟!

قال بتأكيد :

- فعلا.. عندما تعجبنا أغنية تكون استجابة أصابعنا سابقة

أي استجابة أخرى.. تنقر، وتعزف وحتى ترقص..

- وتشم.. اليد تشم؟

فعلا، اليد تشم.. سأقول كلاما لا يعجبك وأنا لا أريد إغضابك.

سارعت:

- لا، لا، تكلم.. لن أغضب مادام كلام مجانين..

اليد أداة اللمس.. لكنها تترجم اللمس إلى مناظر، وروائح.. مثلا.. لا تغضبي.. لو أن يدي تتحسس جسدك الآن.

صرخت فيه:

رجاء. ماذا تقول؟ انت مجنون فعلا..

بنفس الهدوء:

ياسيدتي.. أنا أقول.. لو.. لو.. وهذا حديث مجرد محادثة في التليفون..

- حديث.. فيه تجاوز وعيب..

أحيانا نتحمل العيب والتجاوز بدافع المعرفة.. طلبة كلية الحقوق يدرسون الجريمة.. وطلبة الطب يدرسون الأمراض.. وأنا.

قاطعته:

حسنا.. حسنا.. انتهينا.. لو..

- نعم، لو.. في مواضع معينة، عن طريق اللمس.. فقط، باليد، فقط.. أشعر بأنني أغوص في حمام دافئ.. أحسَ أنني دخلت حديقة كلها ورد وياسمين، أشاهد أضواء وألوانا، وأتزحلق على الحشائش الناعمة.. وأجلس أمام المدفئة..

صرخت:

- كفى..

قال بتصميم:

- هذه مقدمة لدخول الجحيم..

عادت تصرخ:

- اسكت..

ضربت السماعة على رأس التليفون. شهقت.. ارتعشت.. كان جسدها ملتهبا، رأت نفسها في المرآة المقابلة لمجلسها، لاحظت أن وجهها محتقن بدماء حارة...

تحركت يدها تتلمس جسدها.. قبل أن تترجم اللمسة إلى نظر وسمع.. رن جرس التليفون من جديد.. اتجهت نحوه.. تراجعت.. تراجعت في تراجعها.. رفعت السماعة.. قربتها من أذنها وهي تخشى أن تكون للسماعة يد تتحسس أو أسنان تعض..

جاءها صوت صديقتها:

- ألو.. أحلام.. ما بك؟

قالت بلهاث:

- لا شيء...

- لا شيء؟! أنت مريضة.. صوتك يدل.. يرتعش.. أنا قادمة إليك.. لابد أن أطمئن عليك..

قالت مقاطعة بسرعة:

- لا، اطمئني، لاتقلقي. أنا أنتظر مكالمة مهمة.. انقطع

الخط ، ولا أستطيع شغله معك الآن .. سوف اتصل بك لاحقًا ..
أغلقي الآن .. أرجوك ..

(وجلست في مكانها تنتظر الرنين)

ورنين صاخب داخلها لا يتوقف .. ينتظر ...

الفهرس

خالتي موزة	٥
تاء مربوطة	١١
عندما كان الرجال.. حريما للسيدة	١٩
مهما فيها .. شيء	٢٩
أنا.. وهو.. وهو	٣٩
هلا.. يا عيوني	٤٥
الثالثة.. آه	٥٧
فتاة.. وحيدة..	٧١
أوجاع امرأة.. لا تهدأ	٨٣
رنين.. جسد	١٠١



ولفاطمة يوسف العلي قدرة فائقة على التصوير، وإبراز الجزئيات والتفاصيل الصغيرة ، ومحاولة الغوص في أعماق النفس البشرية ، تربط بين مكنوناتها وتصرفاتها المعلنة . وأحياناً ، فإن التفاصيل تختفي بابتعاد المشهد ، تتجمع في مشهد كلى ، اختلاط تكوينات يصنع لوحة. وهنا يتبدى الفارق بين القصة القصيرة والصورة الأدبية . القصة القصيرة تتسم بوحدة الانطباع . أما الصورة الأدبية فإنها تروي أحداثاً لمجرد الرواية أو الوصف ، دون عناية بما يسمى بالحبكة التي تعني في القصة القصيرة وحدة الانطباع.

إذا كانت المرأة هي الشخصية المحورية في قصص فاطمة يوسف العلي ، فإن وضع المرأة في المجتمع ، قياساً إلى وضع الرجل على وجه التحديد ، هو التيمة الأساسية التي تلح في معظم إبداعات الكاتبة . إنها الشاغل ، والتعامل مع الواقع ، واستشراف المستقبل ، وهي في حالة توق دائم إلى الاستقلالية والتحرر وتحقيق الذات

عالم فاطمة يوسف العلي يناقض مفهوم فرانك أوكنور للقصة القصيرة ، وأن أبطالها ينتمون إلى الطوائف المغمورة ، تلك التي تعيش على هامش المجتمع سدى. عالم الكاتبة هو الأسرة الكويتية - المرأة والرجل تحديداً - دون تقيد بالمستوى المادي ، ولا حتى الإشارة إليه. ولعل المستوى المادي المرتفع هو الأرضية التي تتحرك فوقها كل الشخصيات ، بصرف النظر عن اختلافات المستويات الاجتماعية أو المادية أو النزاعات الطارئة ، أو وضع المرأة في الأسرة ، وفي المجتمع بعامة..

محمد جبريل



